خالد محمد خالد

الدين للشعب

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الدِّين لِلشعب

خالد محمد خالد

الدين للشعب

دار الإسلام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

« جميع الحقوق محفوظة للمؤلف »

الطبعة الرابعة

١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م

في مايو عام ١٩٥٣ ظهر هذا الكتاب في طبعته الأولى تحت عنوان [الدين في خدمة الشعب] . . وهو العنوان الذي كنت قد أَذَعْتُ باسمه بعض الأحاديث في الإذاعة المصرية غَدَاة قيام ثورة ٢٣ يوليو . . ولم يُقَدَّر لتلك الأحاديث أن تتم . . فوقفت إذاعتها . . ثم أخرجناها في كُتَيِّب تحت العنوان السالف في الطبعتين : الأولى والثانية . .

وفي طبعته الثالثة زِيدَتْ موضوعاته ، ثم آثَرْتُ أن يكون عنوانه ! [الدين للشعب] بدلاً من « في خدمة الشعب » . . .

وها هوذا ؛ يجيء اليوم في طبعته الجديدة . . وهي « الرابعة » في عداد الطبعات المشروعة . .

وأقول : المشروعة . . لأن هناك طبعات أخرى مسروقة . قام بطبعها من هذا الكتاب وغيره من كُتُبِي بعض الغَوْغَاء المتطفلين على حرفة النشر من الذين لا ذِمَّةَ لهم ، ولا ضمير . .

* * *

وللكتاب من اسمه نصيب . .

فهو يتعرض لبعض القضايا المَنوط بها مصير الشعوب . . ثم هو يَغمرُها بضوء الدِّين . بكل ما يمثله الدين من شُمول . .

إن تعاليم السّيد المسيح ، وتوجيهات سيدنا محمد – عليهما صلاة ربنا وسلامه – تتزامل في دَرْءِ الضُّرِّ عن البشرية ، وتُجاهد في سبيل تثبيت خُطاها على طريق الخير ، والتقدم ، والصلاح . .

وعلى صفحات هذا الكتاب ، نسمع «كَلِمَة الدِّين» في هَديرها المبارك ، تُزيح من أمام الإنسان ومستقبله . كل قُوَى الرِّدَّة ، والبغي ، والظلام . .

موضوعات الكتاب

— ١ —

حقوق الإنسان من حقوق الله (١)

غايتنا من هذه الأحاديث أن نُزوِّد الوعي الجديد بمبررات دينية صادقة ، ونضع أمام عقل الشعب وقلبه المفاهيم الحقة لكلمات السماء ، وغايتنا أيضًا ، أن ننفي عن الدين عبث العابثين ، ولَغْوَ المبطلين ، حتى يَفيْءَ إليه أولئك الذين شردوا منه أوكادوا . . وحتى يأنس الناس اليه في يقين وحُب ، ويتخذوا منه في رحلة الحياة رفيقًا وعَضُدًا . .

وحديث الليلة يريد أن يكشف عن الزمالة الأبدية القائمة بين دين الله وحقوق الأنسان . ويريد أن يقيم الدليل على أن توقير الله ورعاية حقوقه ، يقتضيان توقير الإنسانية ورعاية حقوقها .

وإنكم لتعلمون ، أنه قد سار عَبْرَ التاريخ كثير من الفلسفات والمبادئ التي نادت بحقوق الإنسان وحرضت عليها — ولكن

(١) هذا الحديث أول الأحاديث التي أذيعت تحت عنوان « الدين في خدمة الشعب » غداة قيام الثورة توكيدًا للحق في تحرير الشعب من استبداد القصر والإقطاع .

مِن حق الدين عليكم أن تعلموا أنه فضلا عن الدور الباسل الضخم الذي قام به لتحرير الإنسان ، فإن أول وثيقة سجلت حقوق الإنسان كانت وثيقة دينية . . . وإن الكتب المنزلة جميعها لَتسجل هذه الحقيقة ، ويصورها القرآن الكريم في وضوح حين يحدثنا عن قصة أبي البشر . . آدم .

والآن ، نستطيع أن نتخيل اللحظة الحاسمة ، فنرى آدم قادما من الغيب . حيث كان في تلافيفه المغيبة مجرد مشيئة تنتظر التنفيذ . . .

وها هو ذا قد وقف بين يدي ربه يؤدي تحية القدوم . . . ويتقبلها ربه بقبول حسن . . . ويفطن آدم إلى أن أولى رسالات الله إلى البشر ممثلين في أبيهم ، على وشك أن تلقى ، فيلقي سمعه ويفتح فؤاده . . وتشرق كلمات الله فإذا هي في إيجاز وحسم وثيقة بحقوق هذا الإنسان ، وعهد يكتبه الله على نفسه حيالها .

يا آدم « إنَّ لكَ ألَّا تجوعَ فيها ولا تَعْرَى . . وأنك لا تظمأ فيها ولا تَضْحَى »

وهكذا تلقَّى أبو البشر أول تأمين ضد العَوز ، فلا عُرْيَ ولا جوع . . .

وعندما دقّت ساعة الرحيل إلى الأرض كان وعي آدم لا

يَزال مُفْعَمًا بهذه الحقوق . . بيد أنها قبل اليوم كانت مكفولة بقدرة خارجة عنه . . أما اليوم ، وفي الأرض المجهولة التي ولىَّ وجهه شطرها ؛ فإن عليه وحده صيانة هذه الحقوق . ولكأنما أراد الله أن يهيئه لما سيعانيه في سبيلها من صراع ؛ فقال : « اهبطوا ، . بعضكم لبعض عدو» . . .

وصدق نذير السماء . . فرق من صفوف الإنسانية شُذَّاذ تقمصت أجسادهم طبائع الوحوش وضراوة الذئاب ، وأبوا إلا عُلُوًّا في الأرض وفسادًا . . فهبَّ الخيرون لحماية التراث والنهوض بالأمانة . . هنالك نشب الصراع المشروع من أجل حق الإنسان في أن يظل إنسانًا . . .

لا يجوع . . . وسواعده هي التي تنبت الحب .

ولا يَعْرَى . . . وأنامله هي التي تنسج الثوب .

ولا يُستعبد . . . وقد ولد حرًا .

والآن . ندع الموكب المصطرع يمضي لمستقر له . ريثما نلقاه بعد حين . وتعالوا نعرف كيف دعم الدين حقوق الإنسان ، ولماذا . . . ؟

أما كيف ، فقد سلك الدين لذلك سبلا كثيرة . لكن أروع وسائله وأذكاها تتمثل في مناداته بمبدأ التوحيد . . .

لقد مضى يحطم بالتوحيد كل حاجز يقف بين الإنسان وباريه . ويدحرج على الأرض أولئك الأرباب الكاذبين الذين انتفخت أوداجُهم بالغرور والظلم ، يزعمون أنهم ظلال الله في الأرض . وهم سعير يتلظى وهجير يضطرم .

نعم . إن إعلان الأله الواحد ، كان الضربة القاصمة التي حطمت عن الإنسان أغلاله ، ومزقت قيوده ، وهوت بالمتألهين عن عروشهم الملحدة ، وقيل للانسان يومئذ . . قيل للرجل العادي . . .

أنت وحدك ظل الله في الأرض . . أنت خليفته . . أنت
نفخة من روحه . . . أنت شهبة من نوره . .
انهض ، هذا الكون لك . . . والشمس تجري من أجلك . . .
ليس بينك وبين الله وسطاء . . . استعن بالله ، ولا تعجز . . .

ومضى رسل الله عليهم السلام يخاطبون بغي البغاة ، وضعف المستضعفين ، ويعلنون في قوة وإصرار أن لُباب رسالاتهم تحرير الإنسان ونشر لوائه .

وقف إشعيا يقول :

«إن الرب مَسحَني لأبشر المساكين
أرسلني لأعصب منكسري القلب . . .

لأنـــــادي للمَسْبِيِّين بالعتـــــق ،
وللمأسورين بالانطلاق » .

وصاح عيسى في المساكين :

– « الحقَّ أقول لكم : إن كان أحد
لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت
الله » . . .

فماذا كان يعني بالولادة من فوق . . ؟ ؟

كان يعني أن يريقوا في أنفسهم الخانعة كل مشاعر العزة والسمو والامتداد . . . حتى تترعرع من ذبول ، وتنتعش من خمول ، وتولد من علياء .

وأراد أن يؤكد المعنى الذي سلف . وهو ربط البشرية بربها ربطًا وثيقًا لا يتخلله شفيع ولا وسيط . فخاطب تلامذته قائلا :

« . . سيسلمونكم إلى مجـــالسهم ،
وتُجلدون في مجامعهم وتُساقون أمام
الولاة والملوك من أجلي ؛ فمتى أسلموكم
فلا تهتموا بما يقولون ، فسيوحَى إليكم
ما تنطقون . لأنكم لستم المتكلمين .
بل روح الله هو الذي يتكلم فيكم » . .

وجاء دور محمد ، فبلغ ذروة التحريض على التحرر والعزة . وأحدقت تعاليمه بالطغيان من كل مكان . وانطلق يجلجل بوحي الله . . .

« الناس سَواسِيَةٌ كأسنان المُشط » . . .

لا نبالة للدم . . ولا امتياز بالوراثة . . ولا كرامة بمال أو نسب . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . ثم نحا بدعوة التحرير نحوًا مدمدمًا ؛ فقال يخاطب أصحابه ويخاطب الأجيال .

– إذا ذهب كسرى فلا كسروية بعده . . . وإذا ذهب قيصر فلا قيصرية بعده . . ولقد أظلكم من الله خير جديد . . . نبوة ، ورحمة . . !

لكأنه اليوم معنا ، ولكأنه يحرضنا ويعنينا .

أرأيتم أيها السادة كيف كان رسل الله يتكلمون ؟

أرأيتم هذه الصورة العابرة للأمانة التي حملوها في مشقة وكَبَد ، والجهد الذي بذلوه من أجل الإنسان وحقوق الإنسان . . ؟

إذن ؛ فاسمعوا لماذا أمرهم ربهم أن يحرروا الناس وينفضوا عنهم كل مذلة وعار.

لقد اختار الله الإنسان ليعمر هذا الكوكب الذي نعيش على

ظهره ونضرب في مناكبه . وما كان له وهو عان مُوثَق ذليل أن يجد لمهمته سبيلا . . . ولو أنه قدر لنا أن نرى الأرض قبل أن يفد الإنسان إليها . . . وكيف أحالها من عماء موحش إلى تحفة تزدان بآثار عقله وما عملت يداه ، إذن لآمَنَّا في بداهة وتسليم بأنه قبس من الأله .

ولقد أختاره أيضًا ليكون خليفته في الأرض . ومنفذا لمشيئته عليها. وأعلن ذلك في كتابهِ الكريم حين قال سبحانه : « إني جاعل في الأرض خليفة».. وما دام ذلك كذلك؛ فلا بد أن يتاح لهذا الإنسان من فرص الكرامة والعزة والسيادة ، ما يجعله أهلا لتمثيل إله اتصف بالعزة والكبرياء والسيادة . . .

من أجل ذلك ، جئنا نعلن في يقين وصدق . أن حقوق الإنسان من حقوق الله .

ومن أجل ذلك أيضًا دعى الله البشر ليرتفعوا ؛ فقال : «كونوا ربانيين » .

ودعا الرسول عليه السلام دعوة مماثلة فقال : « تخلقوا بأخلاق الله . إن ربي على صراط مستقيم » .

وقد يسأل سائل : كيف يعنى الدين بحقوق الإنسان كل هذه العناية ثم لا يلغي الرق بآية حاسمة . . ؟ ؟

والجواب ، أن الدين يُؤْثِرُ التطور على الطّفْرة ، وفي أيام نزوله وإهلاله كان الرق يمثل في النظام الاجتماعي « عقدة حيوية » وحاجة مُلِحَّة ، ولم يكن من الممكن لأكثر من سبب أن يُجتث ويحذف . فنادى الدين بحق العبيد في الحرية والحياة ، ، وشرع مبدأ العتق ونظمه وحرض عليه . ثم ضاعَف حقوق الأرقاء على أسيادهم حتى يدفعهم العجز عن الوفاء بها إلى إطلاق سراحهم . .

لقد كانت أثينا مهد الحرية . وطالما تغنى شعراؤها بحرية الرقيق ، ومع ذلك عجزت أثينا عن إلغائه لأن دور الألغاء في التطور لم يكن قد أزف وحان . . . ورغم استمرار هذه الدواعي فقد لعب الدين دورًا إيجابيًا في تحريرهم وفي التعجيل بعصر التسريح المطلق والإلغاء التام .

لقد وقف الرسول عليه السلام يمحو عنهم اسم العبودية : فقال :

« لا يقولنَّ أحَدُكم عبــدي وأَمَتي
وليقل فتاي وفتاتي وقال : هم إخوانكم
فأطعموهم مما تطعمون . وألبسوهم مما
تلبسون » .

أيها السادة هذا حديث سريع ينبئ عن المنزلة التي يريد الله للإنسان أن يتبوَّأها . فامضوا نحوها في غير تَهيب أو وجل ، وانفضوا عن أنفسكم كل إحساس بالنقص أو عجز عن إختيار المصير .

— ٢ —

ليس في دين الله إقطاع

قبل البدء في الحديث ؛ تعالوا نُجِبْ معًا على هذا السؤال :

مَنْ مِن رسل الله عليهم السلام يقبل ضميره الحر التقي أن يحمل وزر تجويع الجماهير الكادحة ؟

ومَن مِن رسل الله عليهم السلام يسيغ ضميره الحر التقي أن تملك الأرض فئة باغية عاطلة ، وتملك مع الأرض الماء والهواء والبشر . . . تُجْبىَ إليها ثمرات كل شيءً . ويحرم المجهدون في سبيلها من كل شيءً .

مَنْ . . ؟ ؟

أهو موسى . . ؟ ؟

لقد كان لُبابُ رسالة موسى أن يقوض الاستبداد في شخص فرعون ويحطم الاستغلال في شخص قارون . ويمن بالحرية على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين .

أهو عيسى . . ؟

لقد نظر عيسى ذات يوم إلى الحقول الباذخة التي زرعها الحفاة للطغاة واختلج رأسه في غيظ وقال : إنها حقول منجوسة . وإن صياح الحصادين قد دخل إلى أذني رب الجنود . . !

أم هو محمد . . ؟

ولكن محمدًا هو الذي جاء يحمل من لَدُنْ ربه وثيقة زاكية تخبر الناس أن الله سخرلهم ما في السماوات والأرض جميعًا منه . وتصرخ في وجوه الكانزين أن من أحتكر طعام قوم أربعين يومًا ؛ فقد برئت منه ذمة الله ورسوله . !

إذن ، ليس في هؤلاء الثلاثة المرسلين ولا إخوانهم الذين سبقوهم بإيمان من يسيغ هذا الرجس .

وإذن ، فليس في دين الله إقطاع . . .

ولكي نزداد اقتناعًا بهذه الحقيقة علينا أن نعرف ما هو الإقطاع . والإقطاع – يا صحاب – هو سيادة الغرور على الحق .

هو سيطرة البغي على العدل .

هو استعلاء الأنانية على الواجب .

بدأ في نماذجه البدائية يوم انتفضت في الإنسان القديم

غرائز الشر ووضع الكهنة دين الناس يومئذ في خدمة الملوك وذهبوا يقنعون الجماهير أن الأرض التي يزرعونها ليست لهم ؛ وإنما هي للآلهة الجاثمة في المعابد ، والآلهة وهبتها للملوك يهبون بعضها لمن يشاؤون من الخدم والموظفين .

ثم أخذ الإقطاع شكلا طاغيًا في أعقاب انحلال الامبراطورية الرومانية يوم رأى المستضعفون أنفسهم مثلومي العزم مجردين من القوة والحول ، فلاذوا بالسادة الأقوياء ليحرسوهم من سطو الغزاة وقطاع الطريق . . . فرفض السادة حمايتهم إلا إذا جعلوا أموالهم وأنفسهم وأهلهم مِلْكًا لهم . . وهكذا بين عشية وضحاها ، وبكلمة واحدة من أمراء الإقطاع ، انقلب الأحرار عبيدًا ؛ يبنون ما لا يسكنون ، ويزرعون ما لا يأكلون . . . !

ومضى الزمن ينادي بعضه بعضًا . . . فإذا الإقطاع ينقرض ويبيد ، وإذا حقوق الإنسان تزحف فتحتل مواقعه وحصونه ، ويتحول الرعايا إلى أُمَّة . . والعصابة إلى دولة .

ولكن سوء الحظ أغرى فلول الإقطاع المنهزمة بالمكث في هذه الرقعة المظلومة من الأرض – مصر ، وما حولها . . . إذ قامت نظم من الحكم أرادت مشيئتها السامية أن تكون الوارث

الشرعي لذلك الحيوان المنقرض البائد – الإقطاع . . .

وإذا كنا لا نطيق بقاء هذا الكابوس ، فليس فقط لأنه يحرمنا اللقمة ويضربنا بالجوع والمرض . . . بل لأنه يذكرنا بالشقوة التي كابدها آباء لنا كرام سقطوا تحت مطارق بغيه وأهواله . . . ويذكرنا بالغزاة الذين تطفلوا على بلادنا وساموها الخسف والعذاب .

نعم ، يذكرنا بأن السلطان سليمان التركي عندما تولى الخلافة بعد أبيه سليم أعلن في (فرمان وقح) أنه « المالك الحر لجميع أرض مصر » ويذكرنا بيوم آخر جمعت فيه وثائق امتلاك الأرض من آبائنا وأحرقت ثم ذريت في الهواء .

ويذكرنا بيوم ثالث حين قسم إسماعيل الأرض إلى تفاتيش ومضى يوزعها في سخاء لم يكلفه شيئًا على خدم القصور وأغوات البلاط تاركا أصحابها الحقيقيين يأكلون الجوع ويلبسون العراء . . . !

تصوروا هذا الوضع الشاذ ، ثم انظروا ببداهة . هل يقبله دين ؟

لقد كاد الحق يلتبس على كثيرين يوم كان بعض المتحدثين الرسميين باسم الإسلام يتجشأون في كل يوم فتوى تشحذ ضراوة

الإقطاع ، وتمكن قبضته الآثمة من أعناق الملايين التعسة ، وتضفي على الظلم الاجتماعي ألوانا من المشروعية والتقديس .

أما اليوم ، فقد دقت ساعة الخلاص معلنة وفاة الإقطاع وتسريح كهنته .

واليوم ، يعلم الناس جميعًا أن الله لم يكذبهم وعده ، وأن الدين لم يساهم قط في الظلم الذي كان يوءودهم ، وأنه أنزل من السماء ليكون في خدمتهم هم ، وليس في خدمة الفراعين أو القوارين .

سادتي . . . إن مسافة الخلف بين الدين والإقطاع بعيدة جدًا .

فالدين ، عدل وإخاء ، والإقطاع عبودية وعدوان . .

الدين ، كَدٌّ وعمل ، والإقطاع تبطل ونهب . .

الدين ، سياج للفضيلة ، والإقطاع تحدٍّ لكل فضيلة .

الدين ، يقول للناس ليس فوقكم سوى الله ، والإقطاع يقول للناس أنا ربكم الأعلى . . .

الدين ، صيحة مُنْقِذَة ؛ والإقطاع وطأة مميتة . . .

الدين ، يقول للناس : خذوا ، والإقطاع يقول للناس .

هاتوا . . .

فكيف يلتقيان . . ؟ ؟

وإنه لظلم للمنطق وللحق أن نعتبر الإقطاع في مصر مِلكية ، فالحقيقة أنه احتكار ، والفارق بين الملكية والاحتكار كالفارق بين رجل يحمل في يده قرشًا وآخر يحمِل مشرطًا ينهب به جيوب الناس . وإذا سلمنا جدلاً بأن الإقطاع مِلكية ، فلن يكون في هذا ما يبرر بقاءه فالدين يعطي الحاكم الصالح حق توجيه هذه الملكية نحو صالح الأمة واستيفاء ضروراتها ، توجيها ينظم التحديد والتأميم معًا . . .

أتظنون أن الله يلعن من يحتكر حفنات من القمح . . . ثم يرضى عن احتكار الأرض التي تنبت القمح . . . ؟ !

وإذا سئلنا لماذا لم يُصَفِّ الرسول الإقطاع ويوزع التفاتيش. . . نجيب سائلين – ولماذا لم يركب الرسول القاطرة البخارية . . ؟ ! !

إن الرسول لم يفعل الثانية لعدم وجود قاطرة ، وهو أيضًا لم يوزع التفاتيش لأنه لم يكن في جزيرة العرب تفاتيش . . . وحسبه – عليه السلام – ما ترك من المبادئ الحرة والتوجيهات الحاسمة . . . فهو القائل :

« إنّ الأشْعَرِيِّين كانوا إذا أَرْمَلُوا في

غزو ، أو قلَّ في أيديهم الطعام ؛ جمعوا
ما عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه
فيما بينهم . فهم مِنِّي وأنا منهم » .

وهذه الفقرة الأخيرة – فهم مني وأنا منهم – تزكية وتأييد للنهج الذي أنتهجه الأشعريون .

وهو الذي بلَّغنا عن الله هذه الوثيقة الفاصلة :

« وسخَّر لَكُم ما في السموات وما في
الأرض جميعًا منه إن في ذلك لآيات
لقوم يتفكرون » .

وإنكم لتلاحظون أن الآية الكريمة تضع الأرض تجاه السماء . وكأنها تقول لنا : هل يستطيع أحد من الناس كائنًا ما كان جاهه وثراؤه ، أن يحتكر لنفسه ولأبنائه من بعده ؛ ضوء القمر وحرارة الشمس ، والسحاب الثِّقَال . . . ؟ – إن منافع الأرض كمنافع السماء لا ينبغي لعصابة من الإقطاعيين أن تحتكرها وتذهب بخيرها . . .

على أن أمامنا صحابيًا جليلا لم يكد يلمح فاشية الإقطاع تفشو بعد فتح الإسلام لبعض البلاد الزراعية حتى اندفع كالرصاص المقذوف يكافح الإقطاعيين ويتحداهم . . .

ذلكم هو أبو ذَرٍّ العظيم . . . ولقد حملت الصحف منذ عامين فتوى دينية ، لبعض المتحدثين الرسميين باسم الدين . . . نعتوا فيها أبا ذر بالفوضوية والشغَب . . كي يضائلوا من قيمة العمل الجليل الذي قاوم به الإقطاع . . .

ولكن اسمعوا أيها السادة . . إن في نبأ أبي ذرما قد يدُلّ على أن الرسول عليه السلام يقر سعيه ومذهبه . فلقد قال له ذات يوم قبل وفاته .

« يا أبا ذر. . . إنك تعيش وحْدَك ،
وتموت وحدك وتبعث وحدك . . .وستلقى
بعدي أذى كثيرًا فاصبر حتى تلقاني
على الحوض . . . »

قال أبو ذر. . . يا رسول الله . . هذا
الأذى . في طاعة أم في معصية . ؟

فأجابه الرسول . . وعلى فمه ابتسامة كضوء
الفجر. . . بل في طاعة يا أبا ذر» .

وهكذا تنبأ الرسول بنضال صاحبه ووصف موضوع النضال بأنه طاعة وحق .

سيداتي . . . سادتي . . . ليس الدين في استنكاره للإقطاع

إلا إستجابة حية لأماني البشر وتصويرًا صادقًا لطبائع الأشياء . . .

فطبائع الأشياء تتطلب أن تقوم في الناس حكومة ترعاهم . . ومن المحال أن تجتمع في بلد ما ، حكومة وإقطاع . . إن وجود أحدهما يعرقل وجود الآخر . ذلك أن غاية الحكومة إقامة العدل والأمن والمساواة والإقطاع بطبيعته وغرائزه ضد العدل والأمن والمساواة . . . وإذن ، فللدولة – أي دولة – أن تختار بين الحكومة والإقطاع . . . ولن يجتمع الاثنان في وطن إلا إذا اجتمع الثلج والنار في إناء . . . ثم لم يطغ أحدهما على الآخر . . وقد رأيتم كيف طغى الإقطاع على الحكم في بلادنا حتى تبَّر كل شيء تتبيرا ، وردَّ روحنا الحي ترابا في تراب . .

أيها السادة . . تحيتي لكم . . وعما قريب إن شاء الله سيقول بعضنا لبعض في حبور وجذل : . ، كان في مصر إقطاع(١) . . .

---

(١) كان هذا الحديث قد أذيع قبل أن تقوم الثورة بتنفيذ الإصلاح الرراعي

— ٣ —

حق الشعب في أن يحكم نفسه، بنفسه، لنفسه

عندما تريد أمة أن تسترد سيادتها وتَنضُوَ عن نفسها حكم الفرد نسمعها تنادي : أريد الديموقراطية . . .

والديموقراطية كما يعرفونها هي : أن يحكم الشعب نفسه ، بنفسه ، لنفسه .

أن تنهض الحكومة من صفوف الشعب ، وأن تجيءَ ثمرة اختيار حر يمارسه الشعب ، وأن يكون سلوكها من الجد والاستقامة بحيث تصير مغَانم الحكم جميعها إلى الشعب .

والحكم الذي يستكمل هذه العناصر ، هو وحده الجدير بالبقاء فالبشر ليسوا ضيعة تورث ؟ ولا سلعة تباع ، ولا قطيعًا يسام . . ولقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا . . ويجب أن يظلوا كذلك . وما دامت مقتضيات الاجتماع اليوم تتطلب وجود حكومة تسوس الناس وترعاهم ، فلا بد من أن تجيءَ هذه الحكومة وليدة رغبة صادقة تعبر عن ثقة الشعب بها ، واطمئنانه إليها ، وتعاضده معها

خاصة وقد نزل المجتمع عن جزء من حريته للدولة نظير قيامها بخدمته ، والدين يبارك حكم الشعب نفسه بنفسه ، لنفسه . ويهيئ له سبيل ذلك في عزم أكيد .

ولما كان الإقطاع ، والمَلَكِيَّة المطلقة هما الحاجز الشاهق الذي يحول بين الشعب وحريته . فقد أعمل الدين معاوله لدكِّهما وتقويضهما .

ولقد حدثتكم في الحلقة الأولى ، كيف طارد الدين الإقطاع وكافحه ، والليلة ترون ، كيف ازدرى الملكية المطلقة وصارعها ، حين رآها تقف حَجَر عثرة ضد أمانيِّ البشَر ، وحقهم في أن يختاروا حكامهم بأنفسهم ، لا أن يُفرضوا عليهم بشهادة الميلاد . . ! !

فحين جاوز أحد فراعين مصر القدماء حدوده واستعلى بجبروته على الناس يقتل أبناءهم ، ويَستحيْ نساءهم . . ويقول لهم في غطرسة وبغي . . « أليس لي مُلْكُ مصر ، وهذه الانهار تجري من تحتي – » . . ؟

عندما حدث ذلك اصطنع الله موسى ، وقال له :

« إذهب إلى فرعون إنه طغَى » .

وهكذا كان مجرد طغيان فرعون سبباً كافياً لإرسال رسول

يزجره ويرد الحرية المسلوبة إلى ذويها .

وجاء موسى . وقام صراع طويل بين النبوة الهادية والملكية المطلقة وانتهى الصراع أخيراً عند شاطئ البحر . حيث ابتلع الْيَمُّ فرعون ثم بصقه على الشاطئ ليكون لمن خلفه آية ومثلا . .

إن تقدير الدين لديموقراطية الحكم لا يتمثل فقط في حثه عليها حين يقول :

« وشاوِرْهُم في الأمر» .

« وأَمْرُهم شُورَى بينهم » .

وقول الرسول لصاحبيه أبي بكر وعمر :

« لو ذهبتما لرأي ما خالفتكما » .

بل يتمثل قبل ذلك وبعد ذلك في عدم ارتياحه بل في كراهيته للمَلِكِية المطلقة باعتبارها مظهرًا خطيرًا لسلب سلطان الشعب وإلغاء إرادته . . .

وإنكم لترون القرآن الكريم لا يذكر الملوك المستبدين بخير أبدًا . . فهو تارة يتهمهم بالسلب على لسان الخضر فيقول :

« وكان وَرَاءهم مَلِكٌ يأخذ كل سفينة غصبًا » . . .

وتارة أخرى يتهمهم بالفساد والبطش على لسان بُلْقَيْس فيقول :

« إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها
وجعلوا أعِزَّةَ أهلِها أذِلَّة وكذلك يفعلون » .

وقول القرآن : « إذا دخلوا » . . إيماء واضح إلى أن الملكِية المطلقة كثيرًا ما تكون بضاعة مجلوبة تغزو البلاد وتفرض عليها سلطانها .

ومرة ثالثة يتهمها بالتبذخ والترف . فقد دخل عمر يومًا على رسول الله عليه السلام فألفى الحصير قد أثر في جنبه فبكى وقال : ألا تتخذ لك فراشًا لينا يا رسول الله ، فأجابه الرسول :

« ماذا يا عمر . . أتظنها كِسْرَوِيةً ؟
إنها نُبوَّةٌ لا مُلْك » . . .

وهكذا ينهض الدين في وجه هذا الطراز الغاشم من الحكم . . لماذا ؟ لأنه تعويق آثم لتقدم الحياة . . وأنانية جاهلة تسخِّر الناس للعمل ضد أنفسهم وتضع القيم السامية في خدمة الغرور والباطل . .

والدين في هذا المنهج ينسجم مع الفطرة انسجامًا وطيدًا . . هذه الفطرة التي أوحت إلى رواد الحضارة جميعهم أن يهتفوا بأن الأمة مصدر السلطان ، وأن المؤهل الوحيد للحاكم – أي حاكم –

هو ثقة الشعب ، فإذا اختفى هذا المؤهل اختفى الحاكم لفوره وساعته .

وإمعانًا من الدين في تزكية حكومة الشعب ؛ ضرب رسول الله المثل بنفسه ، وترك للناس من بعده حق اختيار رائدهم الجديد . دون أن يفرضه عليهم .

وكذلك فعل عمر . . فحين سأله أصحابه أن يستخلف عليهم أحدًا رفض وقال :

« مالي ولأوزاركم، أحملها حيا وميتا » . . ؟ !

ثم رفض أن يكون لابنه عبد الله شيء من الأمر. وقال : حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد . ويُسأل عن الأمة ، ظلمَ فيها أم عَدَل . . ! ؟

ولا تزال كلمته – رضي الله عنه – شعارًا مرتفع الرنين في ضمير الزمن ، تلك الكلمة التي زجر بها واحدًا من كبار ولاته فقال :

« متى استعبدتم الناس وقد ولَدتهم أمهاتهم أحرارًا . . . ؟ »

على أن أبرَّ الوسائل التي يمكن الدين بها لحكم الشعب يتمثل

في محاربته كل ألوان التأثير على الشعب ، وفي تعرية الحكم من جميع مظاهر الأبهة التي تجعله في أعين الناس زخرفا مرغوبا .

ففيما يتصل بالتأثير على الناس يحرم الرشوة ويلعن مَانِحَها وآخذها . ويعتبر شراء الذمم كبرى الكبائر والموبقات . . ويحرم على الناس شهادة الزور ، ويترك لأئمة الدين أن يبينوا للناس أن إعطاء الصوت في الانتخابات شهادة بصلاحية المرشح لتحمل مسئوليات وظيفته كنائب . فإذا لم تصادف هذه الشهادة أهلها . . كانت زورًا . . وإثمًا . . وضلالاً .

وفيما يتصل بتعرية الحكم من مظاهر الزخرف والإغراء . نجده يطالب الحاكم بألَّا يتميز عن الناس في شيءٍ . . وألا يجاوز مرتبة حدود كفايته . وألا يبيت شبعان ، وفي الأمة جائع واحد . . وألَّا يتخذ له حاجبًا يصدُّ المظلومين عن بابه . . وألَّا يقبل هدية مهما تكن ، تأتيه وهو يمارس الحكم بين الناس . ويعلن الرسول في حديثه . أن الحكم أمانة شاقة تقضي بأصحابها إلى الشقاء والخزي إلا إذا أخذوها بحقها وأدوا ما عليهم فيها . . .

اسمعوه يقول :

« لَيَتمَنَّيَنَّ أقوام يوم القيامة أن ذوائبهم
معلقة بالثريا يُدلَّون بين السماء والأرض

وأنهم لم يلوا عملا » . . ! ! . .

بل وأكثر من ذلك نجد الدين يحرم على الناس التهافت على الحكم ، وينزع ثقته من الذين يطلبونه ويسعون إليه .

ذهب العباس إلى رسول الله عليه السلام يسأله أن يوليه أمارة فقال له الرسول :

« إنَّا واللهِ لا نُوَلِّي هذا الأمر أحدًا يسأله ،
أو أحدًا يحرص عليه . . . » . .

وليس معنى هذه النصوص التي سردناها أن تصطبغ الحكومة بصبغة دينية خاصة . . . فالإسلام إذ يزكي حكومة الشورى يترك للناس حرية اختيار وسائلها وتحديد غاياتها ، ورسم مناهجها ووضع دستورها . . .

أيها السادة : هكذا يريد الله لخلقه أن يعيشوا سادة في ظلال حكومات يختارونها ويحسنون اختيارها . فلا تفرطوا فيما لكم من حق ولا تختاروا من لا يرعى لكم حرمة ، ولا يخشى فيكم ذِمَّة .

أيها السادة . . .

ارفعوا رؤوسكم ؛ فقد وضح الطريق .

— ٤ —

حق الشعب في الحرية والسلام

حين أتحدث عن الحرية والسلام . يغمرني إحساس عميق بجلال الإنسانية وروعة كفاحها . . .

وأتصور الأجيال التي ذهبت في الدهر الأول . . .

أتصورها وهي تخوض معارك الهول ، وتقاتل من أجل حريتها وسلامها وحوش الغاب ، ووحوش البشر ، وقسوة الطبيعة . . وتذهب فريسة حروب طائشة آثمة . .

أتصور الذين نَعَتَهم التاريخ بأنهم كانوا يُسخَّرون لصيد الضفادع من الغدران كي لا تقلق الأمير الإقطاعي في نومه ! !

ويُجلدون بالسياط إذا نهروا كلاب سادتهم التي تخرب حقولهم .

ويساقون إلى الموت إذا عارضوا رغبة الملك في افتراع بناتهم والسطو على زوجاتهم . . .

أتصور المشاهد الدامية ، وأسأل نفسي : كم من القرون المليئة بالمشقة والفزع والهول ، قطعتها الإنسانية مشيا على الشوك ، وعلى الجليد ، وعلى الأشلاء حتى جعلت الإنسان سيد نفسه ، ورفعت فوق حطام قاتليه – لواءه المعقود بالكرامة والعزة ، وشادت حضارة فاتنة سامقة مطردة نحو التفوق والكمال ، وهيأت له وسائل العيش في موادعة وحب وسلام ؟ ؟

ثم أعود فأقتنع بأنه ليس ثمة ما هو أكثر ضلالا وإثما من تلك المحاولات الفاجرة التي تبذل لعرقلة الموكب الزاحف. ورده على أعقابه حيث الحرب ، والظلم ، والإنحطاط . . .

وأُيَمِّمُ وجهي شطر الدين لأنظر. هل هو مع الحرية أم عليها وهل يؤازر التقدم الهادف أم الرجعية البلهاء . . . ؟ وهل هو صديق السلام أم صديق الحرب . . . فإذا هو – يا أصدقائي – نصير متحمس للحرية ، وللتقدم ، وللسلام .

ولقد رأيتم من أحاديثنا السابقة ، كيف يقف الدين مع الحريات السياسية للناس فيزكي حق الشعب في اختيار حاكمه اختيارًا لا يشوبه ضغط ولا إكراه ، ويزكي حقه في تقويم الحاكم وعزله إذا انحرف وجار . . ويمكِّن الإنسان من ثمرة عمله وإنتاج يده تمكينا ينفي عنه التسخير والاستغلال . . .

وها نحن أولاء ، نبصره في إعجاب شديد وهو يدعو لحرية النقد ويحرض عليه .

وحين يسخر سخرية فاضحة من الذين يقولون :

« إنَّا وجدْنا آباءنا على أُمَّة وإنَّا على
آثارهم مُقتدون » .

وحين ينادي بحرية المعارضة ، فيقول :

« إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه
يوشك أن يَعُمكم الله بعذاب » . . ! ! !

وحين يبارك حرية الفكر وانطلاقه ، فيقول الله للناس ؟

« سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ
الخلْق » . .

ويقول الرسول لمعاذ :

« بم تحكم إذا عرضت لك قضية ليست
في كتاب الله ولا في سنة رسوله . . ؟ »
حتى إذا أجاب معاذ قائلا – أجتهدُ رأيي
لا آلو . يضمه الرسول إلى صدره وهو
يقول : « الحمد لله . . . »

ولما استعمل أصحابه عقولهم استعمالا أثار بعض الشك في نفوسهم ذهبوا إليه «عليه السلام» في تفزع وأسى ، فإذا هو يقول لهم في تهلل وبشر:

– «لا تجزَعوا ، هذا صريح الإيمان –
نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال :
رب أرِني كيف تُحيي الموتى . . . ؟
قال أَو لَمْ تُؤمن . ؟ قال : بلى ، ولكن
ليطمئن قلبي » .

وهكذا ، وقبل أن يظهر ديكارت وفلسفته بقرون بعيدة ، احترم ابن عبد الله العقل ، وجعل الشك طريقًا إلى المعرفة ، ومنفذًا إلى اليقين .

أما السلام فبينه وبين الدين رحم لا تنقطع أبدًا . .

هذا هو المسيح يقول :

« إني أُريد رحمةً لا ذبيحة . . .
« من أراد أن يُخاصمك ويأخذ ثوبك
فاترك له الرداء أيضًا . . . »
« طوبى للوُدَعاء . لأنهم يَرِثون الأرض . .

طُوبى للرحماء ، لأنهم يُرحمون . .
طُوبى لصانعي السلام . . لأنهم أبناء
الله يُدْعَوْن ، » ! !

وهذا هو محمد يُسأل عن أفضل الأعمال فيجيب :

« بَذْلُ السلام للعالَم » . . .

ويدمدم على دعاة الحرب والدمار بتعاليمه المضيئة التي تجعل السلام عقيدة . . .

اسمعوه يقول :

« والذي نفسي بِيَده لا تُؤمنوا حتى
تَحابُّوا . . . ألَا أدلكم على شيءٍ إذا
فعلتموه تحاببتم ؟ أفْشُوا السلام بينكم »
« ألا أخبركم بأفضَلَ من درجة الصيّام
والصلاة ؟ إصلاحُ ذات البين » . . .

ولكي يوكد هذا المعنى في أخلاق الفرد قال :

« إذا مرَّ أحدكم في مجلس أو سوق وفي
يده نَبْلٌ فليأخذ بِنِصَالها ، لا يخدش
بها أحدًا » . . .

ثم لكي يوكده في أخلاق الأمم نادى بقول الله :

« يا أيها الناس إنا خَلَقْناكُم مِنْ ذكَرٍ وأُنْثَى وجَعلناكم شعوبًا وقبائل لِتعارَفوا » .

نعم . لتعارفوا . . . لا لتحتربوا وتتصارعوا .

أما القتال في الإسلام فقد كان ولا يزال موثقًا بضرورة الدفاع عن النفس ، مقيدًا بقول الله سبحانه

« قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » .

وهو بهذه المثابة محصور في أضيق الحدود لا يهدف إلى إفناء الجماعات عن طريق الذرة وحرب الجراثيم . . . بل يفرض على الناس ألا يجاوزوا في قتالهم مكان المعركة ؛ ويدعوهم لأن يكونوا – إنسانيين فيقول :

« لا تقتلوا أمرأة ، ولا وليدا . ولا تحرقوا زرعًا ، ولا نخيلا ، ولا تنهبوا ولا تمثلوا . واجتنبوا الوجه لا تضربوه . »

لقد وقع الضمير السياسي للعالم في مأساة . . . وأصبح شعاره اليوم قول الشاعر :

قَتْلُ امرئ في غابـــة جريمـــة لا تُغْتفَـــر
وَقتْلُ شعبٍ كـــاملٍ مَسألةٌ فيها نَظـــر ! !

فما أشد حاجته إلى كلمة سواء ؛ تحيل صحراءه المجدبة واحة خضرة وديعة . . . أيها السادة – إننا الآن نعيش في ثورة نقلتنا خطوات إلى أمام . . . ومن حقنا بعد هذه الوثْبة أن نتمتع بسلام طويل المدى في الداخل والخارج حتى ندعم وثبتنا ، ونُرعرع نهضتنا .

فلنتشبث بالسلام إذن ، ولنربأ بأنفسنا أن نكون عَلفا لحرب عدوانية لا هدف لها ، ولا شرف فيها . . .

ولنلَخِّصْ حياتنا ونهجنا في هذا الشعار :

أحرارٌ دائمًا . . .

ومع السلام أبدًا . . .

حق الشعب في المساواة

كان الناس أمة واحدة ، يسعدون معًا ويشقون معًا ، ويدأبون جميعًا ، حتى اقتحمت حياتهم عوامل لم يكن منها بد ؛ فقلبت الأوضاع ونأت بهم عن الرشد . . وأتى على البشرية حين طويل من الدهر ، وهي تتراكض في وجود تعس مظلم . يَحقِر الأعَزُّ منها الأذل . . . ويلتهم القوي فيها الضعيف .

وجاءها الأنبياء . . . ومر بها الفلاسفة والرواد ، فدقوا جميعًا طبول المساواة ، وأخذوا بيد الإنسان المستعبد لشهوات القاهرين ومصالحهم نحو التحرر والخلاص .

وقف « بركليز » يقول :

« سنفتدي بالحياة نظامنا الذي أرتضيناه
نظامنا الذي يهدف لتحقيق مصالح
الأكثرية لا الأقلية ؛ والذي يجعل أساس
التفاضل بين الأفراد ، الموهبة والعمل

لا الثروة والجاه » .

واقترب عيسى عليه السلام من الفقراء والمستضعفين ليرفع معنويتهم المنهارة فقال لهم :

« ما أسعدَكُم أيها الفقراء فَلكُم مَمْلَكَةُ
الله . »

وأراد أن يجرئهم على المترفين الذين لم يكن أحد يستطيع أن يرفع بصره إلى مواطئ أقدامهم فناداهم : —

« ما أشقاكم أيها الأغنياء فإنكم قد نِلْتُمْ
عَزاءكم . . . إنَّ وُلُوج الجمل في سَمِّ
الخياط لأسهل من دخولكم ملكوتَ
الله » ! !

ثم استدار بوجهه نحو الذين كانوا عونًا للأنانية والاستعلاء فصاح فيهم :

« يا من تُحبون الصدارة في المجامع
والتحيات في الأسواق ويل لكم . .
« يا من تضعون على عواتق الناس أحمالا
لا يطاق حملها وأنتم لا تَمَسُّونها بأصبعكم

ويل لكم » .

ثم أعلن أهدافه الإنسانية في عزم أكيد
فأخذ يتلو كلمات أشعياء « إنَّ الرب
مسَحني لأبشر المساكين . أرسلني لأعصب
منكسري القلب ، لأنادي للمسبيين
بالعتـــق . وللمأسورين بالانطلاق . .
لِأعزيَ كل النائحين »

وعلى قمة التطور الديني وقف محمد عليه السلام يؤكد المساواة بين البشر جميعًا فيقول :

« الناسُ سواسية كأسنان المشط . لا فضلَ
لأحد على أحد إلا بالتقوى كلكم لآدم ،
وآدمٌ مِنْ تُراب » .

وحمّل نفسه كل تبعات هذا المبدأ ، والتزمه التزامًا سيطر على فكره ، وسلوكه فهو حين يدخل على أصحابه ويقومون له ينهاهم قائلا :

« لا تقوموا ، كما تقوم الأعاجم . يُعظِّم
بعضهم بعضًا » .

وهو حين يناديه أصحابه – أنت سيدنا وابن سيدنا ؛ يزجرهم قائلا –

« لا يستهوِينَّكُم الشيطان فما أنا سَيِّد
أحد . إنما أنا عبد الله ورسوله » . .

وهو حين يسمع أحد صحابته ينابذ أخاه قائلا له – يابن السوداء . يغضب حتى تنتفض عروق وجهه ويقول : –

« ويحك يا أبا الدرداء . . . أرِدَّةٌ إلى
الجاهلية . . ليس لابن البيضاء على ابن
السوداء فضل . » ! ! !

وهو يوم يخرج مع أصحابه في غزو أو سفر يعمل مثل ما يعملون ، فإذا قالوا له : نحن نكفيك ذلك يا رسول الله . . . أجابهم :

« إني أكره أن أتميَّز عليكم » . . ! !

ولقد زاره يومًا وفد من أعيان قريش وكبرائها مظهرين استعدادهم للإيمان به والإصغاء له بشرط أن يجعل لهم يومًا وللفقراء يومًا . . . قائلين – ما كان ينبغي لصعاليك مكة وعبيدها أن يجلسوا منا بمنزلة الأنداد والقرناء . . . فإذا الوحي يدمدم بقول الله – :

« واصبرْ نفسَك مع الذين يَدْعون رَبَّهم بالغدَاة
والعَشِيِّ يُريدون وجهه ولا تَعْدُ عيناك
عنهم تُريدُ زِينةَ الحياة الدنيا ولَا
تُطِعْ من أغْفَلْنا قلبَه عن ذِكْرِنا واتَّبعَ
هواهُ وكان أمرُه فُرُطًا . . . »

وهكذا حملت النبوة الهادية مشعل المساواة من زمن بعيد وحَضَّتْ عليها بنفس العزم الذي حضَّت به على عبادة الله . . . وماكان بوسعها ألا تفعل ، فالدين الذى لا يقدس المساواة يفقد ذاته لأن غاية الدين الأولى إنهاض الكرامة البشرية ، ولن يتأتى ذلك وفي الناس آلهة وعبيد .

ولاشيئ يعدل حاجة الناس إلى المساواة ، . سوى حاجتهم إلى المساواة . . فالشعور بالدُّونِيَّة يمسخ الملكات الإنسانية ويشوه الرقي البشري .

والإحساس بالتمايز الظالم والتفاوت الآثم يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعلها نهب خاطرات الحقد ونوازع الإنتقام ، لا سيما إذا كان هذا التمايز أمام القانون ، حيث ينجو الأشرار الذين يسرقون الملايين ليشيِّدوا بها حياة باذخة . ويسجن الفقراء الذين يسرقون الملاليم ليدفعوا بها مجاعة محققة . !

هنا يجلجل دين الله على لسان أحد رواده الشجعان –

« والذي نفس محمد بيده ، لو سرقت
فاطمة بنت محمـــــد ، لَقطع محمد
يدها » . . ! ! !

وهنا أيضًا تعمل المساواة داخل حدودها المشروعة دون أن تتعداها فلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أخرى ؛ ولا يؤخذ زيد بجريمة عمرو وكل امرئ بما كسب رهين .

أيها السادة إذا كان لله ظل في الأرض ، فظله المساواة ؛ لأنها العدل ولأنها الحق ، ولأنها السلام . . وليست المساواة أن يتساوى الناس فيما يأكلون وفيما يلبسون . بل أن يتساووا في الحقوق والواجبات وفرص الحياة جميعها .

إن المساواة ترفض أن يكون الهَناء والرخاء في جانب ، ويكون الحزن والمسغبة في جانب آخر ، ترفض أن تكون الحرية والسعادة لقوم ، وتكون العبودية والهوان لآخرين .

ترفض أن تملك عصابة كل وسائل الإنتاج ، وتذهب ملايين الناس وقودًا لهذا الإنتاج . . ! !

ترفض أن يكون الطريق إلى البرلمان ؛ العصبيه والنِّصَاب

العَقارِيّ أو المالي ، وأن يكون الطريق إلى المناصب ؛ النفوذ والجاه . . ! !

وبعبارة فاصلة :

ترفض الظلم ، لأنه ضلال .

ترفض التمايز ، لأنه غرور.

ترفض التعصب ، لأنه إنقراض .

فلتكن المساواة عقيدتنا – أفرادا ، ومجتمعًا ، ودولة .

وتعالوا نَقْض أيامنا على هذه الأرض سَواسيةً وإخوانا .

— ٦ —

حق الشعب في المعارضة والمقاومة

لا أعرف فارقا – أيَّ فارق – بين حق الشعب في المعارضة ، وحقه في التنفس . فكلاهما عملية لا بد منها لتأمين الوجود ، واستمرار الحياة . . .

ولقد أودع الله في كل إنسان قدرة على التمييز . وجعل له عقلا يلهمه ويهديه .

وتفاوت العقول يقتضي بالبداهة تفاوت الآراء . .

ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولكنه وهو يُعدُّهم لحياة لها قيمة . تركهم يدركون بقوة العزم والجهد والتفاعل والتجربة الغاية المنشودة من خلقهم ، ألا وهي الصعود بإنسانيتهم إلى ذروة الكمال الميسور .

والقيمة الأخلاقية لحياتنا تتمثل أولا وقبل كل شيء في حبنا الحق واستجابتنا له . .

والذين يحبون أنفسهم أكثر مما يحبون الحق . هم وحدهم الذين ينكرون على الناس إبداء آرائهم ، والتعبير عن أنفسهم . .

وهؤلاء يحاربهم الدين بنفس العزم الذي يحارب به الكفر ، ويرى فيهم تعبئة ملحدة ضد التقدم والإرتقاء . .

وإننا لنستطيع أن نقول : إن رسل الله جميعًا بدأوا زعماء معارضة ، وقادة مقاومة ؛ وحين يقص الله علينا من أنبائهم ، يفتح أعيننا على الظروف التي اقتضت إرسالهم . . وهي في مجموعها تعطيهم صورة الثائر المنقذ الذي جاء ليقول « لا » . . وليقود الجماهير ضد الجهل وضد الظلم ، وضد الانحطاط ، حتى لو كان الجهل جهلها . . والظلم ظلمها . . والانحطاط انحطاطها . .

فهذا إبراهيم – عليه السلام – يسأل سادة قومه :

« ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكِفون . . ؟ »

« قالوا : وَجَدْنا آباءَنا لها عابدين » . . !

قال : لقد كُنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين » . .

وحين تبلغ المعارضة مداها دون أن تردع قوى التعصب والعناد ، ينتقل إبراهيم إلى طور آخر من أطوار الصراع ، هو طور المقاومة فيصرخ بين ظهرانيهم

« والله لأكِيدَنَّ أصنامكُم بعد أن
تُولُّوا مُدْبِرِين » . . ثم يحمل معوله
وينهال عليها حتى يجعلها جُذاذا . .

وحين يساق إلى النار التي أججوها لإحراقه لا يجزع ولا يُرَوَّع بل يتحداهم في سخرية ويقول :

« أُفٍّ لَكُم ولِما تَعبدون من دون الله
أفلَا تعقلون » . . ؟ !

أليس هذا مشهدًا فذًا يجعل مبدأ المعارضة والمقاومة شعيرة من شعائر الله ؟

وهذا نوح ينادي كبراء قومه :

« اتقوا الله ، وأطِيعون » . .

فيجيبونه :

« ما نَراكَ إلا بشرًا مثلَنا . . وما نراك
اتَّبعك إلا الذين هم أَراذِلُنا » .

يعنون الجماهير الفقيرة الكادحة . .

فيجيبهم :

« إن تَسْخَرُوا مِنَّا ، فإنَّا نَسْخَرُ مِنْكم
كَمَا تَسْخَرُون » . .

ويفتح الله بينه وبينهم ويهبط إلى الأرض بسلام من ربه وبركات عليه وعلى أمم من معه ، ويَدْهَمُ خصومه الموج ليصيروا من المغرقين ! !

وذلكم شعيب يتحدى الذمم الناهبة العطنة فينادي أصحابها .

« أوْفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا من المُخْسِرِين ،
وزِنُوا بالقِسْطاسِ المستقيم ، ولا تَبخَسُوا
الناس أشياءهم ولا تعثَوْا في الأرض
مُفْسدين » . .

فيجيبونه :

« إنما أنت من المُسَحَّرين ، ما أنت
إلا بشرٌ مثلنا ، وإنْ نَظُنُّك لَمِـــــنَ
الكاذبين » . .

فيرد عليهم في ثقة بالمصير :

« اعملوا على مكَانَتِكم إني عامل ؛
فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يجزيه
ومن هو كاذب . وارتَقِبوا إني معكم
رقيب » .

وهكذا تتوالى مشاهد التطور والتحرر ، تقاوم البلى والعفَن ، ويقوم بها في مشقة فادحة وكَبَدٍ أليم ، أنبياء الله المصطفون ورسله الأخيار .

وجاء دور محمد ، فشحذ نزعة المعارضة وإرادة المقاومة وشدَّ زِنَادَهُما إلى أقصاه . . وقف يتلو على الناس آيَ الله فيقول ، وكأنه يرتل نشيدًا ثوريًا :

« ومالَكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين
من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون
ربنا أَخْرِجنا من هذه القرية الظالِمِ أهلُها
واجعل لنا من لَدُنْكَ وليا واجعل لنا من
لدنك نصيرًا » . . ؟

وليس ذلك فحسب ، بل إن الرسول عليه السلام ليبشر بفلسفة جديدة في منتهى الروعة والإثارة فهو لا يرى المقاومة المشروعة عملاً من أعمال التقويض والهدم بل عملا من أعمال

البناء والانتصار للحياة . . اسمعوه يقول : انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا ، فإذا سئل كيف ننصره ظالما أجاب : ردوه عن ظلمه ، وهكذا وضع : انصر مكان قاوم . . واعتبر المقاومة العادلة انتصارًا للأهداف الإنسانية الخيرة . . وشيء آخر ، فهو يعتبر المظلوم الذي يصبر على الضيم ، ظالما يحمل من الأوزار مثلما يحمل ظالمه سواء بسواء ، ويبشر المستضعفين الذين يمالئون كبراءهم وينحنون لهم بمصير أليم .

وينقل عن ربه صورة للفريقين إذ يقوم بينهما حوار فاشل يلقي كل منهما تبعة الحيف على الآخر وينتهي بضراعة الذين أقاموا على الضَّيْم قائلين :

« رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنا سَادَتَنَا وكُبَرَاءنَا فَأَضلُّونَا السَّبِيلَا . رَبَّنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ العَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا » .

فيجيبهم الله في حزم عادل :

« لكلٍّ ضِعف » أي لكم عذاب ولهم عذاب . .

ولقد كان سلوك الرسول في تقبل النقد والمعارضة عجبًا ،

وأكثر من عجب . . انظروا . .

وقف يومًا يوزع مال الله على الناس ، وأخذ أعرابي نصيبه . فاستقله . . ثم مد يده بالسوء وجذب الرسول من طوق ثوبه جذبًا عنيفًا وقال :

يا محمد . زدني فليس المال مالك ولا مال أبيك . .

واستلَّ عمر سيفه صائحًا . . دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق .

فابتسم الرسول في حنان رطيب وقال :

« دعه يا عمر . . إنَّ لصاحِبِ الحقِّ

مَقالا » .

وكان عليه السلام يقول :

« إذَا عَجزَت أمتي عن أن تقول للظالم ،

يا ظالم ، فقد تُوُدِّعَ منها » .

أيها السادة . . عارضوا الاستبداد ، أينما يكون ، وإذا لم تُجْد المعارضة ؛ فقاوموه ، واعلموا أن يد الله فوق أيديكم . تُميط عنكم العجز وتَحْسِم الهوان[1] .

---

(١) أذيع هذا الحديث والأحاديث الخمسة السالفة غداة قيام ثورة الشعب في ٢٣ يوليو ، توكيدًا لحق الأمة في دحض الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي وتصفية ركائزهما من عرش وإقطاع واستعمار.

— ٧ —

هَـذا المَـالُ

يقص علينا حكيم بن حزام صاحب رسول الله هذا الحديث :

ذهبت إلى رسول الله يومًا ، وسألته مالاً فأعطاني ، ثم سألته ، فأعطاني ، ثم سألته فأعطاني . . . ثم قال :

« يا حكيم : إن هذا المال خَضِرٌ حُلْو ؛ فمن أخذه بسخاوَةِ نفس ، بُورِكَ له فيه ، ومن أخذه بإشراف نَفْسٍ لم يُبَارَكْ له فيه ؛ وكان كالذي يأكل ولا يشبع » .

ليس رسول الله هو الذي يزجر الناس عن الحياة ، ويذودهم عن الثراء فلطالما كان يسأل الله في دعائه أن يرزقه العفاف والغنى ؛ ولطالما تعوذ بالله من الكفر والفقر ، حتى سأله أصحابه يومًا قائلين :

يا رسول الله نراك تقرن الكفر بالفقر ؛ أهما توأمان ؟ قال :

نعم هما توأمان .

وكان يقول في مناجاته ربه :

« اللهمَّ أَصْلِحْ لي دُنيايَ التي فيها مَعاشي ».

وكان يدفع أصحابه إلى تمرس العيش والحياة بكلتا يديه ، فنراه مثلا يأمر رجلا جاء يسأله ، أن يذهب فيبيع من متاعه المتواضع ما يساوي درهمين ، ثم يأمره أن يشتري بأحدهما طعامًا لأهله وبالثاني قدوما يحتطب به حتى لا يكون عالة على مجتمعه ، فيفعل الرجل . ويغنيه الله من فضله .

وأيضًا ليس الرسول عليه السلام بالذي يدعو الناس للتكالب على الثروة تكالبًا يفقدهم إنسانيتهم ، ويشحذ ضراوتهم ، ويُلاشي من نفوسهم كل شعور بفضائل الحياة وواجباتها ، ولكنه يختار للناس طريقًا وسطًا ؛ ويروض غريزة التملك فيهم على الإستقامة والأناة ويدعوهم ليعيشوا في الأرض من غير بغي ، ويمشوا في مناكبها مشيا سويًا لا نزق فيه ولا سُعار.

وإنه ليصف المال بما سمعتم ، خَضِرٌ حُلو ، له رعرعة ولذة ؛ يسر العيون ويفتح الشهيات ؛ وشيءٌ فيه مثل هذه الدواعي الآسرة الفاتنة جدير بالناس أن يقبلوا عليه في أناة ورفق .

وهو عليه السلام يقرر حقيقة خالدة هي : أن الذين يطلبون المال وينشدون الثروة بسخاوة نفس أي في ذمة واعتدال ، يبارك لهم فيه ، أما الذي يطلبه في شراهة وجشع فهو كالمبطون الذي لا ينتفع بما يأكل من طعام .

كان لبعض الأسر خادم مردت على سرقة الأطعمة من مطابخ الجيران ولما استيئس ذَوُوها من أمرها ساقوها إلى نيابة الأحداث ، وهناك تسلمها مكتب الأحداث للخدمة الاجتماعية وعرض الفتاة على طبيب ، ليكشف عن البواعث المرضية لهذا الانحراف .

هنالك وقف الطبيب على السر ، فقد كان جوف المسكينة مرتعًا لديدان الأسكارس ، وهي ديدان نهمة تسطو على كل طعام يدلف إلى المعدة وتذهب منه بنصفه على الأقل ؛ ولم يكن عجبًا أن تعود الفتاة بمجرد علاجها من هذه الديدان شريفة النفس عفة اليد .

هناك ديدان شبيهة بديدان الأسكارس تعايش بعض الضمائر المريضة وتلتهم كل ما في هذه الضمائر من زاد ، وفضائل ، ومُثل .

ثم تتركها ضامرة ممحلة ؛ وليس بها شيءٌ من البر ولا من

القناعة ، ولا من الإيمان ، وإذا انطفأت هذه الأضواء في قلب رجل تاه دليله ، وإذا تاه دليله استحوذ عليه القلق والهلع فيجري وراء المال يجمعه ، حاسبًا أن المال وحده هو المأمن والملاذ . . .

مسكين صاحب هذه النفس . . إن في أقصى نفسه آفة ترعى نعيمها وتلتهم تُقاها حتى تدعها كالهشيم . ولكي ينهض الجماعون للمال من هذه السخرة المضروبة عليهم لا بد لهم من علاج . وعلاجهم بأيديهم . أن يضعوا أموالهم في خدمة الجماعة وأن يسعوا إليها في قصد . وقد تبدو لهم هذه المحاولة سفرا بعيدًا بسبب ما ران على قلوبهم من كزازة وجشع . ولكن لا بأس ، فالخطوة الأولى هي وحدها العقبة وهي المشكلة فليبدأوا بها . إن السعادة والسكينة من ورائها .

أيها السادة – مرة أخرى أقول – إن الإسلام لا ينهاكم عن تنمية الثروة وإربائها . ولكنه يريد لكم مع المال الوفير وسكينة النفس واستتباب العقل ؛ وقديما قال حكيم :

« يا ربّ : خَلِّ مَباذِخَ الحياة الدنيا
تحت أقدام الحمقى ، وأعطني عقلا غير
مضطرب » . !

والذي يُكِبُّ على وجهه في جمع المال ، ويجري وراءه

كالمسعور لن يتأتّى له أبد الدهر أن يجد سكينة نفسه ؛ إن أسوأ الرذائل عاقبة ، تلك التي تتنكر في ثياب فضيلة ، وكثير من النهمين يقنعون أنفسهم بتعلِلات كثيرة واهية . بيد أن الحقيقة في أعماقهم تصرخ – إنكم لكاذبون ؛ وهذه الوصاة الكريمة التي تضمنها الحديث ، تمثل أحد المبادئ الرشيدة في العلاقات الإنسانية .

ذلك أن الفرد التي تستعِرُ في كيانه رغائب الاكْتناز تختفي من نفسه معالم الإنسان المتمدين ؛ وينطلق كالوحش السائب غير مقيد سلوكه بقوانين المجتمع ولا اعتباراته ؛ طاغيًا على حقوق الآخرين من الناس . ومثل هذا العمل جريمة لا ضد صاحبه فحسب ؛ بل ضد الجماعة أيضًا لأنه يحرم أعضاءها من فرص رغيدة كانت ستتاح لهم أو لبعضهم لولا هذه الآفة المتبدية في صورة إنسان .

إن المال في يد الرجل العاقل المستأنى ؛ خادم طيب . . ولكنه مع المتهالك المتطاول ، سيد مستبد . . يتحكم فيه ويسخره ، ويمحق كل راحته وكل كرامته ؛ وما كان الضنك الذي يعانيه الناس إلا وَليد عصابة آبقة من الناس تملكتها رغبة جامحة في الإقتناء ، فذهب أصحابها يجمعون المال بأصابعهم المتشبثة لا يعنيهم من حلال جاء أو من حرام .

سادتي – ذهب سعد بن أبي وقاص إلى رسول الله عليه السلام وقال يا رسول الله : أوصني وأوجز ؛ فأجابه النبي :

« إياك والطمع ، فإنه فقر حاضر» . . ؟ !

فانتفعوا بهذه الوصية وتعلموا إنكار الذات ، ولا تشوهوا حياتكم بالقلق الذي لا يشبع ، والنهم الذي لا يقنع ؛ ولنرتفع بكرامتنا إلى المستوى الذي نُطِلُّ منه على المال ؛ فنراه وسيلة لا غاية . وخادمًا لا سيدًا . . ولْنعتَبِرْ بمصارع الْعدَّائين الذين ذهبوا يلهثون وراء الثروة حتى تقطعت أنفاسهم ؛ فلا هم أدركوها ولا بقيت لهم حياة .

إن أولئك المعتدلين في رغباتهم الذين يسيرون إلى الثروة على صراط من الفضيلة والأمانة والاتئاد ، هم وحدهم الجديرون بحياة حميدة نافعة ليس فيها دموع .

— ٨ —

أناقة النفس

سيدتي :

أنت تحرصين على أناقة ثوبك . .

وتحرصين على أناقة تكوينك . .

وتحرصين على أناقة منزلك . . وليس في هذا ما يضيرك أويسيء إليك ، فالله جميل يحب الجمال ، ويحب النظافة . .

وإنما يضيرك أن تنسَيْ أجلَّ ألوان الأناقة وأزكاها . . تلك هي أناقة النفس .

وأناقة النفس فضيلة تنقص الكثيرين منا — نحن الرجال والنساء بيد أن هذا النقص يبدو في المرأة أكثر وضوحًا ، لأنها أكثر إشراقًا . . وكلما توهج الضوء ، التمعت النقيصة ، ووضح العيب . .

وأناقة النفس — كذلك — ليست شيئًا يوجد على قارعة الطريق

ولا سلعة تباع في المتاجر والحوانيت ، ولا رحيقًا نستحْلِبُه من أثداء الأمهات .

بل هي ثمرة رياضة روحية ، ودأب عقلي وأخلاقي . .

نعم . . هي ثمرة استجابة واعية ، تجعل من الرقة الواهنة ، إخلاصًا حيًّا – ومن الثرثرة الفارغة ، معرفة نابضة ، ومن الوجود المهمل ، حياة نافعة . . والمرأة التي تبلغ هذه المنزلة من الرقي النفسي ، هي التي تهز المهد بيمينها والعالم بيسراها . . وتستطيع وحدها – دون الأخريات – أن تُلْهم الحياة نبوغها وتقواها . .

سيدتي . .

إن الوطن في محاولته الجديدة يريد منك أن تهيبه مواطنا زاكي النفس .

فالفساد الذي تغشَّى حياتنا ، وخيّم عليها كل ذلك الدهر الطويل لن تلغيه القوانين – ولكن تلغيه الإرادة المنبعثة من أنفس أنيقة ، نظيفة ، مترفعة ، تأنف الإسفاف ، وتسمو فوق الصغار .

ولن تستطيعي أن تعاوني ولدك على إنهاض شخصيته ، وترقية نفسه ، إلا إذا سبقتيه إلى ذلك ، فكنت ذات شخصية ناهضة ، وروح مضيءٍ . .

وإنك لقادرة على أن تحملي نفسًا أنيقة ، بمثل قدرتك على أن ترتدي الثوب الأنيق . . ولن يتطلب الأمر منك مشقة ولا عُسْرًا . .

إنما يتطلب إيمانًا بحتمية الظفر بهذه الفضيلة . . إيمانًا بأن أناقة الروح أدعى للإغراء المهيب ، والإجلال الودود من أناقة الثوب . . إيمانًا بأن الحياة قد ضاقت ذرعًا بعارضات الأزياء . . ومضت تتلَمَّسُ في المرأة الجديدة والفتاة الجديدة روعة الروح ، وجلال الهدف ، واستقامة الطريق . .

أعرف نساء كثيرات ، تحيط بالواحدة منهن هالة كاذبة من ضوءٍ باهت مصنوع .

يسر منظرها الأعين بادئ الأمر ، حتى إذا تكلمت فضحت نفسها فإذا في رأسها الذي كان يبدو فاتنًا ، جمجمة خَرِعَةٌ غبية . . وإذا وراء صدرها الذي كان يبدو ودودًا . قلب مُفعم بالسوء والسواد وهكذا تنطفئ الهالة . ويرتد ضوؤها الشاحب ظلامًا في ظلام . . ! !

ذلك ، لأن الضوء لم يكن قادمًا من النفس ، لم يكن منبعثًا من الروح والأعماق ، بل كان مجلوبًا من الخارج . لا تمده عظمة باطنة . . ولا يمسك به تيار الفضائل الكامنة . .

والوطن الذي يترهَّلُ بهذا الطراز من النساء يُبتلى بشر ما يمزقه فالمرأة نصف الأمة وعليها أن تفكر كما يفكر الرجل ، وتعمل مثل الذي يعمل ، وتضرب في كل مناكب الأرض بعزم بصير ، وساعد قدير . .

ولن يتأتى لها ذلك . وهي مشغولة بزخرفها . . تاركة عقلها يموت من الجوع . وروحها يلهث من الظمأ . .

نحن اليوم بحاجة إلى الفتاة التي تعني بعقلها أكثر مما تعنى بجسمها .

وترى في حفيف أوراق كتاب تحمله وتطالعه ، جَرسا أعذب وأنغم من وَسْوَسَةِ الحلى وصليل الذهب ، وتَشَمُّ من تراب الأرض ومن دخان المصانع عبيرًا ، دونه كل العطور التي تملأ معاطسها . .

وتشغل جميع وقتها بإعداد نفسها ، وإمداد أمتها . .

وأيضًا . . في حاجة إلى السيدة التي تفعل مثل ذلك . .

لقد روى التاريخ عن فاطمة بنت النبي عليه السلام أنها كانت تملأ اللحظة العابرة من حياتها بالعمل والحياة فكانت — في وقت واحد — تدير الرحى بيدها ، وتداعب مهد الحسين برجلها ، وتتلو القرآن بلسانها ، وتفسره بقلبها ، وتبكي من خشية الله بعينيها . . ولو أسعفها زمانها بأكثر من ذلك من وسائل الدأب

والجد ، لأقبلت عليه في شجاعة وغبطة . .

وها هي ذي – مدام كوري – معجزة إنسانية خالدة تتلألأ بين بنات جنسها ، وتناديهن أن كل شيء ممكن . . ومن سار على الدرب وصل .

ماذا فعلت مدام كوري – أيتها السيدات – حتى أقتعدت من التاريخ أعلى منائره وأبراجه . لا شيء سوى الإيمان بنفسها . . وما كان لها أن تؤمن بنفس مريضة ، محطمة ، مظلمة ، عطنة . . لذلك كانت خطوتها الأولى – أن تُثَقِّفَ نفسها ، وترعاها ، حتى إذا تألقت فرضت عليها إيمانًا بقدرتها وثقة بجلالها . . وهذا هو ما تدعوكم إليه مصر الحديثة . .

أن تضعن الوداعة مكان التصنع . . والبساطة مكان التظاهر . . والإيمان مكان الغرور . . والحماس مكان الترهُّل . . والعمل موضع اللهو . . والحب بديل الغيرة . .

وأن تقفي أمام نفسك ، أكثر مما تقفين أمام المرآة . .

وأن تجعلي لحياتك غرضا ساميا ، وهدفا نبيلا . .

إذا فعلت ذلك ، كنت تلك الأم ، التي تخلق أُمَّة . .

وإذا لم تفعلي ، فأنت يا سيدتي مهما اصطنعت من زخرف وزينة حطام . .

حُطامٌ يطفو فوق العُباب . .

— ٩ —

سيري مع القافلة

سيدتي . .

منذ ثمانين عامًا – تقريبًا – تقدمت فتاة أمريكية إلى غرفة التشريح تحمل لأول مرة في تاريخ المرأة مبضع الجراحة . . تقدمت لتشهد كبير أطباء « روزنبرج » يومئذ ، وهو يقوم بتشريح جُثةٍ لرجل .

فَغر الحاضرون أفواههم من الدهشة ، وازدحمت على وجوههم المشمئزة كل علامات الوجوم ، والمقت ، والاحتجاج . .

وجابهها كبير الأطباء بقوله :

– ليس يَجمُل بامرأة أن تشهد تشريح جثة رجل . . !

فأجابت من فورها :

– أَيُّ فارقٍ بينه ، وبين أن يشهد رجل تشريح جثة امرأة؟!

ومضى الطبيب يُمعن في إحراجها ، فقال :

– إن العلة التي قضت على المريض قد أصابت من أعضائه عورة . .

فأجابته :

– إن أعضاء الجسم كلها يجب أن تكون في عيني الطبيب سواء . .

وبهت الدكتور « بارنر » والتوى لسانه الطويل تحت وطأة المنطق الصارم ، والحجة البالغة .

وفتحت الفتاة الجريئة طريقًا جديدًا للمرأة ، وللحضارة . .

* * *

هذه القصة ، وعشرات مثلها . تصور الكفاح الباسل الذي مارسته المرأة لتصير شيئًا مذكورًا ، ولتأخذ مكانها المشروع في قافلة الحياة .

فهل تستطيعين الآن – يا سيدتي – أن تسألي نفسك عن مدى ارتباطك بهذه القافلة ، أوعن مدى تخلفك عنها .

إن العمل ، هووحده جواز المرورإلى القافلة والإنخراط فيها .

العمل بكافة ضروبه وألوانه . . . في البيت ، وفي المجتمع العمل من أجل نفسك وطفلك وزوجك . . والعمل من أجل

بيتك ووطنك .

إن الأيام التي حكمت على المرأة أن تعتكف في دارها ، وتنطوي على نفسها ، وتنفض يدها من تبعات الوجود لم تكن سوى أعراض غيبوبة طارئة ألمت بالحياة وتغشَّت الإنسانية ثم ذهبت ولن تعود . وإن مصاير الأمم تقررها اليوم ، الطاقة الكامنة في داخلها ، والعمل المبذول في سبيلها ، وأنت تمثلين نصف الطاقة وتحملين نصف الأمانة . وفي يديك إذا شئت أن تتحولي إلى كارثة محققة ، متى استسلمت للبطالة أو أضعت طاقتك الزاخرة في عمل تافه صغير .

وهذا الحديث موجه للفتيات اللاتي يستقبلن الحياة . وللأمهات اللاتي صاغ لهن الماضي نمطًا كسولا من حياة رتيبة بحيث لم يعُد بوسعهن أن يجدن لتغييره سبيلا .

أما الأوليَات ؛ فلكي ينسجن بأنفسهن وهُنَّ في بداية الطريق حياة نافعة مجيدة متعددة الآفاق والإمكانيات . . وأمَا الأخريات فلكي يساعدن بناتهن على أن يكنَّ لَبِنات حية في البناء الجديد ، وأن يجئن استئنافًا لشباب العقل وشباب الروح ، الذي تغضَّنَ في أمهاتهن قبل الأوان .

يجب أن تشحذ الفتاة الجديدة جميع إمكانياتها حتى تؤدي

ضريبة الهواء الذي نتنشقه من سماء مصر . والماء الذي نشربه نيل مصر . والعبير الذي تشمه من تراب مصر .

ويجب إذا وضعت قدمها على عتبة المدرسة ألا تغادرها حتى تقطع الشوط كاملا . . وحتى تزود من الثقافة بحظ وافر يمكنها من أن تعمل كما يعمل الرجل ، وتكسب كما يكسب .

إن الفتاة التي تستطيع أن تكون زوجة وكاسبة تسدي لزوجها . ولبيتها وبنيها أجل الخدمات . إذ ترفع مستوى دخل الأسرة ، فيرتفع منسوب حياتها .

سيدتي – إن العمل يجلو الشخصية ويجدد شبابها ، ويجعلك في المجتمع خيرًا لا غنى عنه ، بدلا من أن تكوني شرًا لا بد منه .

لماذا تنعم الأسرة في البلاد المتحضرة ، ولا تتدغدغ تحت مطارق الشقاء والفاقة ؟

لأن الرجل يعمل ويكسب ، والمرأة تعمل وتكسب ، والأبناء القادرون يعملون ويكسبون . حتى طلاب المدارس والجامعات . . . يقضون عطلة الصيف في حِرَفَ يجمعون بها نفقات العام الدراسي المقبل .

أما هنا . . في بلادنا – ، فإن رجلاً واحدًا هو الزوج . . ينوء كاهله المضْنَى بنفقات أسرة كاملة عاطلة فيذبل شبابه ،

ويهرم عزمه ويموت قبل الأوان مخلفًا وراء ظهره المنقوض سيدة مترهلة من السمنة والاكتناز.

تعلمي كل شيئ . . . وأعملي أي شيئ . . وإذا كنت بحكم ظروفك غير قادرة على العمل في الوظيفة . فاخلقي لنفسك عملا بالمنزل يملأ فراغك المبعثر ، ويشد أزر ميزانيتك الضّحلة الخائرة .

وانفخي في أولادك روح العمل . . . واضربي لهم الأمثال بعظماء البشر الذين كانوا ، وهم يطلبون العلم ، يجمعون الحشائش من مزرعة ، أو يغسلون الأطباق في مطعم ، أو يبيعون الصحف في الطريق . . ثم كان جزاؤهم الحق ومثوبتهم الأكيدة أن صاروا للبشرية أئمة وأعلامًا .

إذا فعلت ذلك أيتها السيدة ، وأنت أيتها الفتاة ، كنت عضوًا نافعًا متألقًا في قافلة الحياة . .

- ١٠ -

درسٌ من محمّدٌ

في هذه الأيام الحاسمة من تاريخنا ، وحيث نتلَفَّتُ ذات اليمين وذات اليسار متطلعين إلى أصدقاء يشدون أزرنا ، ينبعث من أعماق التجربة الإنسانية صوت يقول :

– « إذا لم يكن لك من ذات نفسك صديق ؛ فلن يكن لك في الأرض كلها صديق » . .

ويناديننا محمد بن عبد الله من وراء القرون .

« اسْتَعِنْ بالله ولَا تعجز ، واعلم أن النصر مع الصبر » .

ليس معنى هذا أن نرفض صداقة الخيرين الشرفاء . وأن نعطي ظهورنا للحياة وللأحياء . . . ولكن معناه أن نبدأ في علاقاتنا الإنسانية بأنفسنا ؛ فنثق بها . ونجعلها أهلا لهذه الثقة بأن نتيح لها كل فرص القوة والعزة والنماء .

إنه لمن العسير بل الممتنع على الذين يفقدون الثقة بأنفسهم أن يكونوا شيئًا ، أو أن يظفروا من الحياة بشيءٍ . .

وفي تاريخ الرسول عليه السلام عبرة تعزز هذا المعنى ، وتجمع عزمنا على نقطة البدء في طريق الخلاص . .

ذلك أن اليوم الذي أرسى فيه محمد قواعد دعوته ، ووقع وثيقة انتصاره ، لم يكن يوم « الهجرة » حيث نجا برسالته من هلاك يطارده ولا يوم « بدر » حيث أظهره الله على أعدائه وأهال عليهم تراب القليب . . . ولا يوم « الفتح » حيث جاء الحق وزهق الباطل . . ولا يوم طرقت أبوابه بعوث الملوك تنثر تحت أقدامه ولاءهم . . . إنما أنتصر محمد ، وفرض عظمته على التاريخ في يوم آخر وفي مناسبة أخرى .

يوم كان يغدو وحيدًا ، ويروح فريدا . . والمستقبل المجهول يبدو متجهمًا في نهاية طريقٍ مُوحشة تعج بالسباع المتربصة ، والكلاب اللاهثة .

يومئذ ، والأمل في الظفر – أدنى ظفر – كالأمل في بناء قصر هائل من أشعة القمر . . !

يومئذ ، ومحمد أعزل من كل شيءْ . . . من المال ، والسلاح ، والأنصار . . .

يومئذ ، والساعات تمر به حزينة مقهورة ، استطاع أن يهمس في سمع الزمن : أن افسح لي بين أيامك طريقًا ؛ فقد قررت أن أسير . . !

ومن هنا كان محمد رمزًا عظيما . . . ولم يكن مجرد رسول . امتحنته الأيام امتحانًا رهيبًا حين وسّط المشركون عمه أبا طالب بينه وبينهم ؛ فجلس إليه يقول :

– يا ابن أخي : إن قريشا تشكو من تسفيهك أحلامهم وشتمك آلهتهم . وهم يعرضون عليك المال حتى تكون أغناهم . . والجاه حتى تكون أشرفهم . . والمنصب حتى تكون سيدهم . . وأنا أنصحك بالكف عنهم حتى لا يصيبنا ويصيبك منهم سوء . .

وانفرجت شفتا محمد ، وتألقت دمعاته على وجنتيه كَحبِّ الجُمان وقال :

– « يا عم : والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يقضيه الله ، أو أهلك دونه . . » ! ! !

قالها عليه السلام . وهو في مثل هدوء المحيط وقوته . . فالجداول الصغيرة هي التي تثرثر بموجاتها الهزيلة الوهنانة . .

أما المحيط فيبتلع الأعاصير ، ويطوي العواصف . ثم يمضي في جلاله المهيب لا تسمع له لَغطا . . .

وأزدهى وجه أبي طالب وراءَ قِناعٍ من السكون ، وتحرك رأسه كمن أصابه دوار البحر ، أو دوار المحيط . . .

ورأى المستقبل من خلال كلمات البلُّورية . . . وشدَّ يده على يد ابن أخيه قائلا :

« – امْضِ لما أمرك ربك . ولن أسْلِمكَ إليهم أبدًا » .

ومضى محمد عليه السلام يهدر ، ليس معه باديء الأمر أحد سوى نفسه . . . سوى ثقته بصلابتها ، وجدارتها ، وتقاها .

واليوم ما أشد حاجتنا إلى استذكار هذا الموقف الجليل . . . فهناك من يأخذون المسالك على الكاتب الحر ، والحاكم الحر ، والمواطن الحر . . . يَعِدْونهم ويُمنُّونهم . ويحذرونهم من تسفيه أحلام طواغيت الغرب المتمثلة في دوله الاستعمارية الرجيمة .

فإذا كان الإنسان المتمرد على هذه الطواغيت الفاجرة حاكما ، أو رائدًا لَوَّحوا له بالمال حتى يُثْرِي . . . وبالجاه حتى يَشْرِفُ . . . وبالمنصب حتى يَسُود ، فإذا أخفق ذهبُ المعزّ بدا سيفه يُخوِّف

ويُرعب . . . ولكنه لن يخوف سوى الجبناء الذين ليس بداخلهم أنفس رفيعة أبية يثقون بها ، ويعتمدون عليها .

ترى ماذا كان يحدث لو أن ابن عبد الله خضع لإغراء أعدائه أو إرهابهم ؟

كانت رسالة العدل والحق ستفقد نصيرًا من أقوى نصرائها . . وكانت خطوات الطغيان ستسرع المسير بقدر ما تبطئ خطوات الحق وتتَعثَّر . ولكن الله أعلم حيث يجعل رسالته . فاختار لها رجلا لا يبيعها بالشمس ، ولا بالقمر . . ! !

إن البشرية اليوم تَعْبُر الطريق إلى مستقبلها على صراط حاد دقيق . وإن أدنى خيانة أو انحراف من المغامرين والأفاكين قد يهوي بالإنسانية كلها إلى مكان سحيق . . فلننسج على منوال محمد . .

وليقف هذا الشرق الأوسط – مفتوح الأعين على كل مؤامرة ، وليحذر أن يكون قنطرة أو مهادًا للطواغيت الباغية .

إننا لا نتخلى عن واجبنا حيال أنفسنا وحدها . إذا نحن هادَنَّا الاستعمار أو حالفناه . بل نتخلى عن واجبنا حيال البشرية كلها . . . بل نخون هذه البشرية في أثمن ممتلكاتها ، وهي الحرية والحياة . .

سيحاول المستعمرون أن يفتنونا عن تبعاتنا . . سيحاولون أن يضيع في رنين الذهب وضجيج الدولار هتافات ضمائرنا . . سيقعدون لنا بكل مَرْصَد . . .

سيجلبون علينا بِرَحَمُوتِهِم . وَرَهَبُوتِهِمْ . . ! !

ومع هذا ففي وسعنا أن ننتصر عليهم ، ونهزأ بهم ، إذا عرفنا كيف نؤمن بأنفسنا ونحترم تبعاتنا ونزهد في مغرياتهم الموبقات . ويجعل كل واحد منا من نفسه رجلا يقول في تحد وإصرار :

— « والله . لو وضعوا الشمس في يميني ،
والقمر في يساري ، ما تركت هذا الأمر
حتى يقضيه الله أو أهلك دونه » .

— ١١ —

قاتلوا الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا

في حديث لنا سبق ، عرضنا فكرة الدين عن الحرية والسلام وبَصُرْنَا بأنبياء الله يصنعون للسلام فُلْكًا مبسوطة الشراع . ونريد اليوم أن نتحدث عن الفارق بين السلام والاستسلام ، نريد أن نعرف متى يكون السلام هوانًا وجبنًا ، ومتى يكون القتال سلامًا وأمنًا .

وفي الوقت الذي نُدْعَى فيه من قاتلينا وجلادينا إلى امتشاق الحسام يصير لزامًا علينا أن نحملق في وجوه الحوادث لنتبينها ونسدد أبصارنا وبصائرنا إلى من حولنا لنميز الصديق من العدو ، والخبيث من الطيب ، والحق من الضلال .

وإنه لَيطيب لي دائما أن أقف مع الحق ؛ ولو سألتني أمتي أن أختار لها ، ما آثرت عليه سواه . . وهناك من الناس من يرون في التشبث المستمر بصحبة الحق غرارة وسذاجة ، ويقولون : هناك مُقابل للحق يجب ألا ينسى . . وهو المنفعة . . !

أصحيح هذا . . ؟

أصحيح أن المنفعة تقابل الحق . ؟

أصحيح أنها أولى من الحق بالتقدير والاعتبار؟

أما أنا فأرى في كل يقين ، أن المنفعة النقية مرادف للحق ، وليست مقابلا له . . ومن ثم لا أجد مجالا للمفاضلة بين المنفعة والحق لأن المنفعة هي الثمرة الحتمية للحق . هذه سنة الله في كَوْنه وخلقِهِ . ولقد ضرب مثلا للحق والباطل فقال :

«كذلك يَضْرِبُ اللهُ الحقَّ والباطل
فأمَا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وأَمَّا ما ينفعُ
الناسَ فيمكثُ في الأرض كذلك
يَضْرِبُ اللهُ الأمثال » .

وفي مجال السياسة الدولية ، ينشب اليوم صراع عسير بين الحق والباطل . . بين الذين يؤمنون بحقوق الإنسان والذين يكفرون . . وحينما نرسل أبصارنا نجد في روابي أفريقيا ، وعلى نجود آسيا ، شعوبًا مستبسلة تريد أن تقذف بالحق على الباطل لتدمَغَه .

ففي تونس والجزائر ومراكش . .

وفي مصر والعراق وشرق الأردن والسودان . .

وفي الهند الصينية ، والملايو ، وتنجانيقا ، وفيتنام[1] . .

في كل هذه الأقطار وفي أخرى غيرها ، تلتقي الحرية والاستعمار في معركة تكاد تكون فاصلة . . وإنه لحدث مجيد في تاريخ الإنسان ، أن تقف هذه الشعوب العزلاء في وجه عصابة ضخمة عاتية من دول كبرى أعلنت ألوهيتها في الأرض . ومشت في مناكبها بالأثم والبطش تحمل الدولار في يُمناها . . والقتبلة الذرية في يُسراها . . ! !

نعم ، إنها لمعجزة يصنعها المستضعَفُون بأنفسهم لأنفسهم ، حين يعلنون بكفاحهم الجسور استعصاءهم على كل رغبة ورهبة ، رحين يجدون رغم خصاصة عقولهم وبطونهم ، وَعْيا يرشدهم ، وسواعد تشق لهم الطريق .

يا أيها المستضعفون في الأرض . .

يا أيها المناضلون عن حريتكم . . عن أعراضكم . . عن أقواتكم . . عن سلامكم . . أنتم اليوم جند الحق في هذه الأرضِ ليبلُغ بكم أمرًا كان مقدورًا . . ولن نُهزم أبدًا ما دام

---

(١) لقد ظفرت هذه الأمم باستقلالها .

معنا وعيُنا وإصرارنا ، وما دام الحق رائدنا وحجتنا ، ومهما يطل الليل ويُعْتِم ، فإن وراءه فجرًا مُشرقًا ، وصُبحًا بهيجا .

وفي غمار الأحداث الهائلة التي تدور بنا ، وحيث تختلط صيحات الحق بهمزات الباطل ، وإذْ يركبُ اللَّجاجَة أقوام مِنا اصطنعهم الاستعمار لنفسه واتخذهم مَطايا ذُلُلا . ينبثق من تعاليم الله شموع كضوء الفجر تلهمنا وتهدينا .

إلى أي شيئ تُدْعَى مصر وما حولها . . ؟

إن شعوب هذه الوقعة تدعى اليوم لتخوض الحرب(١) . .

ضِدَّ مَنْ . . ؟

ومعَ من . . ؟

ضِدَّ نفسها . . ومع أعدائها الذين مزّقوها شر مُمَزَّق ، وجعلوها سخرية وعارًا . . ! !

يا للذِّلَّة إذن ، ويا لَلْهوان . . ! !

إن المبدأ الذي يرسم علاقاتنا السديدة الرشيدة بمعركة اليوم الذي يتهيأ العالم لها . . يتمثل في قول الله تعالى .

---

(١) كتب هذا الحديث في أخريات عام ١٩٥٣ . وكانت هناك محاولات لربطنا بأحلاف عدوانية . لكننا قاومناها وانتصرنا عليها .

– « لا ينهاكُمُ الله عن الذين لَمْ يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم ولم يُظاهروا على إخراجكم . أن تَبرُّوهم وتُقْسِطوا إليهم إن الله يُحبُّ المُقْسِطين » .

« إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهَرُوا على إخراجكم أنْ تولَّوْهُم ، ومن يتولَّهم فأولئك هم الظالمون ؟ »

والآن ؛ فلنسأل أنفسنا ، ولنسأل سكان الكرة الأرضية جميعًا .

مَن مِن دول العالم يقاتلنا في ديننا ، ويُخرجنا من ديارنا ، ويُظاهرُ على إخراجنا . . ؟

من الذين شرَّدوا عرب فلسطين ، وانتهبوا منهم أموالهم وأرضهم وأَعراضَهم وديارهم . . ؟

مَن الذين مكَّنوا لإسرائيل وزودوها بالمال والعتاد وقالوا لها : كوني شوكة الجنْب للعرب الصعاليك . . ؟

من الذين قتلوا ولا يزالون يقتلون الكهول والولدان والنساء

في مصر وفي سوريا وفي العراق وفي تونس وفي الجزائر وفي مراكش . . ؟

من الذين حبسوا عنا السلاح ، وسرقوا أقواتنا .

من الذين يقفون في المحافل الدولية ضد حقوقنا ، ويُناصرون علينا أعداءنا . . ؟

من الذين أعلن وزير خارجيتهم وجيوش بريطانيا تسحقنا في القنال ، « أن دولته تؤيد بريطانيا في موقفها ، ولا تعترف بمشروعية إلغاء مصر لمعاهدة ٣٦ » . . . ؟

– أيها السادة – أولئك هم الذين ينهانا الله في كتابه عن أن نَبَرَّهم ونتخذ منهم أولياء وحُلفاء . فإذا ما وصل الأمر إلى أن نقاتل معهم ، ونذهب علفًا لمدافعهم ؛ فان مغادرة الحياة على أية صورة ومثال ، تصبح فريضة الفرائض ، وشعيرة الشعائر . وبَطْنُ الأرض آنئذٍ خير لنا من ظَهرِها . .

وهناك آية أخرى تكشف عن وجه آخر لعلاقاتنا مع هؤلاء . تلك هي قوله تعالى :

« قاتلوا الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » .

إن الله سبحانه تعالى لا يريد لنا أن نكون سلبيين مع هؤلاء الذين تحالفوا على مصيرنا . بل يحرضنا على قتالهم ، لأنهم البادئون ، والظالمون .

أيُّ سَنَدٍ من دين . .

أي سند من خُلُق . .

أي سَند من منفعة . يَأْرِزُ إليه أولئك الذين يدعوننا اليوم للدخول مع الغرب في أحلاف عسكرية عدوانية . . ؟

الغرب الذي غربت فيه كل آمالنا ، والذي لن يكون أبدًا مَشْرِقًا لمستقبلنا . . !

لا أعرف صورة من صور الإلحاد في دين الله ، والنكوص عن الشرف والحق والواجب أبشع من هذه الصورة . . صورة أمة أو أمم تحَيِّي قاتليها . . . وتموت في سبيل جلادها الأثيم ! !

يا ويح العرب لو فعلوها . !

أنقاتل الذين يسالموننا ، ونعاضد الذين يقاتلوننا ، ويذبحوننا ذبح النعاج ؟

وَيْ . . كَأَنَّه لا يُفْلِحُ الظالمون . ! ! !

لقد وعدنا هؤلاء أنفسهم بالإفراج عَن حريتنا مواعيد

عرقوب .

أنصدقهم اليوم ، وهم الذين يخدعوننا في كل يوم مرة أو مرتين ؟ ؟

لطالما حاربنا مع عصابة الشر والأفك والعار . .

لطالما وضعنا كل إمكانياتنا في خدمة بغيها وبأسها .

فماذا كان منهم .

كان أن زَفُّوا إلينا في ليلة سوداء عروس الشرق الأوسط إسرائيل . . . ! ! !

وكان أن ازدادوا جثوما على بلادنا ، وتقتيلا لأحرارنا ، وتشتيتًا لوحدتنا .

فمن كان منا صاحب وعي ، فلينتفع بالتجربة . . .

ومن كان ذا دين فليقرأ قول ذي الجلال :

« قاتلوا الذين يُقاتلونكم ، ولا تعتدوا إنه لا يحب المعتدين » .

— ١٢ —

معًا: حتى لا تنتحر البشريّة

بين نزوة الانتحار، وإرادة البقاء يتأرجح مصير الحياة، والأحياء. فهل تتفوق النزوة، أم تتفوق الإرادة . . ؟

إنا لنعلم أن الإرادة أحق بالفوز وأجدر. . . ولكن في واقع حياتنا كأفراد، وكجماعات، وأمم، مواقف تنتصر فيها النزوة وتفوز.

في تلك المواقف يتقلص نفوذ الإرادة، ويتقاعس إقدامها، وتتبلبل أمام واجباتها، فتتقدم النزوة مهتبلة الفرصة. وتحتل المسرح، وتقوم بدور البطل، وتصنع الحوادث لحسابها.

هكذا تعلمنا تجاربنا.

ولطالما داعبت نزوة الانتحار بني الإنسان. . وكلما سمعتم كتاب الله يحدث عن قرية بَطِرَت معيشتها، فاذكروا نزوة الانتحار التي أوْدَتْ بها.

أمم كثيرة ، ومدَنيات مختلفة ، صعدت في جو السماء وأحاطت بسرادقاتها الأرض . ثم مادت ، وبادت ، وقضي أمرها كأن لم تَغْنَ بالأمس .

ووراء كل نهاية من تلك النهايات ، كان بطر المعيشة ونزوة الانتحار .

يريد الناس أن يموتوا لأنهم يخافون الموت .

ويريدون أن يحاربوا لأنهم يخافون الحرب .

وليس ذلك بعجيب . فبقية من عصر الغابة والظلام لا تزال تترسب في أعماق تفكيرهم ووجدانهم . لتقول لهم : اليأس إحدى الراحتين . ومنهاج اليائس تجاه مشكلته أن يحطم المشكلة عن طريق تحطيم ذاته ، ويتخلص منها ، بالتخلص من الإحساس بها وبالتالي بالتخلص من الحياة نفسها ! ! !

وهذه فلسفة كل من يختار الإنتحار ، واضحة كانت تلك الفلسفة أم غامضة .

والبشرية اليوم تتفلسف . . وتمارس من الفلسفة في وَلَع شديد ؛ ذلك النوع الذي يسعى بها إلى المصير المروع المذموم .

إن نزوة الإنتحار تراودها في جنون قاتل ، فهل تذهب في

جوفها المسعور إلى أمنيتها . ؟ ؟

هل تتحول الأرض الجميلة العامرة المضاءة بعقل الإنسان وتصميمه ، إلى مقبرة . ؟ !

هل تتحول الحياة إلى مأساة ، والمدنية إلى خرائب وأطلال . . ؟

هل تعود الأرض للشمبانزي مرة أخرى يسودها ، ويتفوّق عليها ؛ ويعيد الكرَّة ، فيحاول إنجاب إنسان آخر أهدى سبيلا ، وأكثر رُشْدًا . . ؟ ! !

لشدَّ ما يبدو ذلك مُزعجًا ومُسلِّيًا . .

أجل مُسلِّيا ، لأن نزوة الإنتحار كجميع نزواتنا يُدثِّرها فرح غامض ، ولذة مخبولة .

ولكن نزوة الانتحار لن تنتصر .

إن الأرض صغيرة جدًا في سنها . . إنها لا تزال في طفولتها . والحياة فوقها تدرج وتحبو . . وليس بهذه السرعة سيطويها القدر ، ففرصتها لم تنته بعد . . . بل لعلّها بسبيل أن تبدأ ، وتحقق في ظل العقل والسلام معجزاتها .

إن عقل الإنسان وإرادته سينتصران ، يا أصدقاء الحياة . . فلا تراعوا ، ولا تفزعوا .

ولكن لا يخدعنكم تفاؤلكم الحق عن تبعات الموقف والتزاماته .

فالإرادة التي ستفوز هي إرادتكم . . إرادتنا جميعًا .

أنت . . . وانا . . . وجارنا . . .

هذا الذي يجلس على منصة الحكم في كل بَلد ، وذاك الذي يعكف على كتابه في كل بَلد . . والآخر الذي يكنس الشارع ، أو يهز الآلة ، أو يدير الساقية في كل مكان . .

تلك المشيئات المتضامنة المتكتلة ، المتفانية ، هي التي ستقطع دابر النزوة ، وتعلن انتصار الحياة .

إن إرادة البقاء ستنتصر ، لأنها إرادة الله .

لقد أعطانا الله الحياة وديعة . وأغرى همتنا بالعمل الصامد الصاعد حين قال يخاطبنا عن هذه الوديعة .

« إني مُسْتَخْلِفُكُمْ فيهـــا فَناظِرٌ كيفَ تعملون[1] » . !

كم هو رائع الدلالة ؛ هذا التعبير .

« فَناظِرٌ كيف تعملون » !

---

(١) ليست آية وإنما فقرة من حديث شريف.

فالعمل وحده هو رسالتنا على هذه الأرض . . وعندما تقف الحياة والفناء في معركة فاصلة وجها لوجه ، فإن نوع العمل يتحدد ويستبين كفلق الصبح – وهو مَحْقُ هذا الفناء ، وسحق قواه .

فصَلاتُنا ، ومَناسِكُنا . . .

مَحيانا ، ومماتنا . . .

تفكيرنا ، وإصرارنا . . .

كل خفقة في صدورنا . . . كل تهلُّل على ثُغورنا . . . كل خاطرة في ذاكرتنا . . كل كلمة على ألسنتنا . . كل نبض قوي في شراييننا . . كل عزم في سواعدنا . . . يجب أن يُعَبَّأ اليوم لإجتياز المنزلَق الفاغر ، وَلِدَحْرِ نزوة الانتحار ، وإرادة الحرب . .

ولستُ أدري ، ما هي على وجه التحديد الوسيلة الناجعة المجدية لهذه التعبئة .

ولكني أدري أن الإنسانية تنطوي علي سرٍّ حافل . . وأنها حين تُجمع – ولو في إصرار صامت – على أمر ؛ فإنها تبلغه لا محالة .

فليكن دورنا إذن التبشير بالحياة . ودعوة الناس لمعانقتها . .

والتنفير من إرادة الإنتحار . . ودعوة الناس – جميع

الناس – لتحدِّيها وازدرائها . . .

لنقل للفرد – أي فرد – وحيث يكون . في كل شعوب الأرض وأقطارها .

العن في نفسك إرادة الإنتحار . . .

والعنها جَهْرة . . .

واحتقر في نفسك كل داعية للفناء . . .

واحتقر علانية . . .

وادفع الضرائب إذا كانت ستنضج لك رغيفًا ، أو تُرعرع زهرة . . .

« واقبض يديك ، إذا كانت ستصنع الخراب ، والنهاية ، والمصير الأليم . . .

احمل في قلبك دوما إرادة السلام ، والبقاء ، والحب ، والحياة . .

فإذا حمل كل إنسان هذه الإرادة . . .

إذا حملناها ، معا ، وجميعا ، فالفوز لا محالة لنا ، ولها ، وللحياة . .

— ١٣ —

الثروة القومية من شعائر الله

حدثتكم من قبل عن نظرة الإسلام إلى المال . وإنه ليراه عصبًا من أعصاب الحياة ، ويدرك شهوة الناس الضاربة إلى اقتنائه . ولقد أخبر الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ أن الدنيا خَضِرَة حُلْوة . مُشيرا بهذا إلى إغرائها الشديد ، وسيطرتها الضاغطة على الأنفس .

ومن ثَمَّ ، فقد دعانا إلى الرفق في طلبها ، وحذرنا من أن نمضي وراءها بأعين معصوبة . . .

ألم أحدثكم من قبل بكلماته الرشيدة يقول فيها عن الدنيا ، من أخذها بسخاوة نفس بورك له فيها ، ومن أخذها بإشراف نفس لم يبارك له فيها » .

ولقد كان محمد قدوة شامخة . . ليس في موقفه كفرد تجاه المال وضراوته فحسب ، بل وفي مسئوليته الاجتماعية تجاه أموال الناس ، وحقوق الأمة .

إذا خان أحد من ذلك المال درهمًا واحدًا ، فكأنما خانه جميعه ؛ وفي هذا الموطن ، لا يقبل محمد شفاعة ، ولا يبذل تسامحا ، ولا يتأوَّل موقفا . .

أهدى رفاعة بن زيد الجذامي للرسول غلامًا يقول له مِدْعم . .

وفي غزاة وادي القرى ، أصابه سهم وهو يحط رحل رسول الله عليه السلام . .

فقيل له : يا رسول الله ؛ هنيئًا لغلامك ، أصابه سهم فاستشهد .

فأجابهم :

« كلا إن الشَّمْلَة التي أخذها من الغنائم
يوم خيبر ، لتشتعل عليه نارا » .

أيُّ ولاء للأمانة . ؟

وأية رعاية لأموال الناس ! ؟

« إن الشملة التي أخذها من المغانم يوم خيبر ، لَتشتعل عليه نارا » . . ! ! !

رجل سولت له نفسه أن ينال من الغنائم ما ليس له بحق . . وهو لم يطمع في كثير ، إنما هي شملة . . تساوي بضعة دراهم . .

ولكن السرقة هي السرقة . . والخيانة هي الخيانة . . ٧
يحددها الكمّ ، وإنما تحدد نفسها .

ولكن . أهذا كل ما كافح به الرسول ضراوة الحرام في الأنفس الخائنة . . أن يتوعد أصحابها بالنار ، بعد الموت . . ؟ ؟

أبدًا . . .

وإنما أعدّ لهم في هذه الحياة جزاء صارما . حرمانهم من٤
الثقة التي تؤهلهم لولاية أمور الناس ، وعزلهم عنها .

علم ذات يوم أن أحد ولاته قبل هدية . فغضب غضبًا شديدًا . واستدعاه إليه . فلما قدم سأله ، كيف يأخذ ما ليس له بحق ؟ . .

فأجابه الوالي معتذرا بأنه إنما أخذ هدية ، ولم يأخذ رشوة .

فقال محمد كلماته الحازمة الواعية :

« أرأيت لو قعد أحدكم في داره . ولم نُولِّه لنا عملاً أكان الناس يهدونه شيئًا . . ! ! ! »

ثم أمره أن يدفع بالهدايا إلى بيت المال . . ونحَّاه عن العمل .

من أراد أن يتعرف إلى رجل يرعى أموال الشعب ، كما

ى أكثر شعائر الله قدسية وإلزامًا . فليقترب من محمد . .
لك الرجل .

ولقد طبع خلفاءه بطابعه . .

فأبوبكر ، الخليفة الأول يقف ديدبانًا يقظًا على مال الأمة . . بادئا بتحديد موقفه من نفسه ، فيحرمها حقها . ولا يمنحها كفاء عمله ومنصبه أكثر من حَسْوِ طائر قنوع . . !

ويُثَنِّي ببنت أحب الناس إليه ، هاديه ، ومنقذه من غاشية الجاهلية . . رسول الله عليه السلام . .

فبعد موت النبي ، حسبت ابنته فاطمة رضي الله عنها ، أن لها حقًا في سهم الرسول بخيبر . فقصدَت الخليفة أبا بكر تقول له :

— من يَرِثُكَ إذا مِتَّ . . ؟ . . .

فيجيبها : ولدي ، وأهلي . .

قالت : فما بالُك ورثت رسول الله دوننا . . ؟

فأجاب : يا بنت رسول الله ، والله ما ورثت أباك ذهبًا ولا فضة . !

قالت : إذن ، فأين سهمنا بخيبر ، وصدقتنا بفَدَك . ؟

أجابها أبو بكر رضي الله عنه :

– يا بنت رسول الله ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنما هي طُعمة أطعمنيها الله حياتي . فإذا مت ، فهي بين المسلمين » .

وهكذا عادت فاطمة ، لم تظفر بحاجتها ، فقد اقتنعت بأنه حق الناس ، وليس حقًا لها . . ولم يتأول أبو بكر ليرضيها ، وهو الحريص أبلغ الحرص على إرضائها . . ! ! !

ولقد كان عمر يركض وراء بعير من بُعْران الدولة ليبلُوَ عافيته ، ويطمئن عليه . ذاكرا أنه وديعة الله عنده . .

ولا يزال يرنُّ في ضمير الحياة صوته الواثق ، وهو يقول :

« والله لو ضاع بالعراق بعير من أموال المسلمين . لخشيتُ أن يسألني الله عنه يوم القيامة » . ! !

هكذا يرعى الدين أموال الناس التي جعلها الله لهم قياما ،

ويقيم من تعاليمه ، ووصاياه ، وزواجره ، أسوارًا شاهقة ، تذود عنها طمع الطامعين .

فمن نال من تلك الأموال بغير حق ، حمل وزر صنيعه في دنياه .

« ومَن يَغْلُل ، يَأْتِ بما غَلَّ يوم القيامة » .

ولم يكُفَّ الدين عن المال يد الحاكم المستغل فحسب ، بل كفّ عنه كذلك يد الفرد السفيه .

فهو إذ ينهي عن التبذير ، ويجعله قرين الكفر حين يقول الله سبحانه وتعالى :

« إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين ،
وكان الشيطان لربه كفوراً » .

هو إذ يفعل هذا ، يحدد للانسان تجاه الثروة القومية للأمة موقفا دقيقا فطنا . . ويضع عينه على حقيقة كبرى ، هي أن هذا المال الذي نتداوله ، ليس حقًا خالصا لنا ، ولو بدا أنه كذلك . . بل هو حق مشترك . يتطلب حماية مشتركة .

وإذا كان الإختلاس جريمة ، لأنه سطو على مال الشعب ، وإذا كان تبذُّخ الحاكم جريمة ، لأنه إهدار وضياع لمال الشعب .

فإن تبذير المرء في ماله الخاص ، جريمة كذلك . . لأنه تبديد لجزء من الطاقة الحية للأمة ، ولأنه تمهيد لبقية جرائم المال .

فالإنسان الذي اعتاد ألّا يرعى في ثروته الخاصة عهدًا ولا ذمة ، سيكون نفس الشخص حين يوكل إليه شأن من شئون الثروة العامة للأمة . .

والإنسان الذي تعوَّد الترف ، منفقا من ماله ، يكون أكثر مبادرة إلى السرقة والانتهاب ، حين ينضب جيبه ويُمحل . . أفيأخذنا العجب إذن ، حين نسمع أنباء ما فرضه الرسول وخلفاؤه على أنفسهم من تقشف يكاد يشبه المجاعة . . ؟ ؟ !

كلا . فلقد كانوا في مقام القدوة . . وما كاد ميزان هذه القدوة يضطرب قليلا في خلافة عثمان ، حتى كانت الفتن العاصفة تلفّ حياة الناس بمثل الضَّباب . . !

أما قبل هذا ، والميزان راسخ وقويم ، فليس ثَمة فِتن ، وليس ثَمة سوى حياة عامرة بالصفاء ، وبالتضحية . .

لقد كان للرسول شعار آثر به نفسه وأهله . .

ذلك الشِّعار هو أن آل محمد هم أول من يجوع ، إذا اضُطر الناس لأن يجوعوا . . وآخر من يشبع ، إذا قُدِّر للناس أن

يشبعوا . . ! !

ولقد كان لابنته فاطمة حق في بعض الْفَيْئ ، فذهبت تطلب لنفسها خادمًا ، كبقية الناس ، ولكن أباها ردَّها رداً جميلا . . وأعطاها مكان حقها قُبلة أبوية حانية على جبينها ، وقال لها وهو يجفف دموعها :

« ألا أدلُّكِ على خير من خادم . . !
سَبِّحي ربَّك عند نومك ثلاثًا وثلاثين ،
واحْمَدِيه ثلاثا وثلاثين ، وقولي اللهُ
أكبر أربعا وثلاثين . . ! ! !

ويعيش أبو بكر بدرهمين في اليوم . .

ويدعو عمر ابنه لأن يأكل يومًا خبزًا وزيتًا ، ويوما خبزًا وملحًا ، ويومًا خبزًا وماء . .

ويخاطب أمعاءه التي أَمَضَّها سوء التغذية فيقول :

« قَرْقِرِي قَرْقِرِي كيف شئت ، فَوالذي
نفس عمر بيده لن تذوقي اللحم أبدًا ،
حتى ينزل الرخاء بالمسلمين » . .

ويدخل الحسن البصري على إبراهيم بن أدهم ، فيجد

أمامه كسرة خبز ونصف خيارة . . ويدعوالحسن ليشاركه طعامه ، فتبدو من الحسن حركة كأنه يتساءل بها : أين الطعام . . ! !

ويبتسم إبراهيم قائلا :

«كُلْ يا حسَن . . فإن الحلال لا يتَّسعُ للإسراف . . ؟ !

وبعد ؛ فما كان الدين ليجهل قيمة المال ونفعه . وما كان ليخلي بين الناس ، والثروة القومية بلا ضابط أو توجيه .

وإذا كان قد ترك لنا وضع النظم والقوانين التي تحمي هذه الثروة وتنميها ؛ فأنه قبل هذا ، ومع هذا ، قد ترك لنا من كلماته الهادية . ومن سلوك رُواده وصفوته ، ما يجعل رعاية الثروة القومية في شتَّى صنوفها إحدى شعائر الله . .

وفي سبيل هذا ، هدّم بمعاوله كل آفات الدخل القومي من إقطاع واحتكار ، على النحو الذي أسلَفْنا تبيانه في حديثنا « ليس في دين الله إقطاع » .

- ١٤ -

طيّبات الحياة - جميعًا لهم

في أساطير الفرس القدماء قصة طريفة عن ملك من ملوكهم أراد أن يصعد في جوّ السماء ويجوب أقطارها .

وأدلى برغبته هذه إلى مشيريه الذين انطلقوا يتدبرون الأمر ، ويفكرون .

وأخيرًا اهتدوا إلى حيلة حسبوها بارعة . فقد لاحظوا أن النسر طير قويٌّ جبار ، حتى إنه ليختطف الحمل أحيانًا ويطير به عبر الفضاء . . .

أفلا تستطيع نسور أربعة أن تحمل الملك إلى حيث يريد . . ؟

وهكذا جلبوا أربعة نسور صغيرة ناشئة . وسهروا على تربيتها . وشَحْذِ قُواها . حتى إذا كبرت وصارت قادرة على العمل الذي ستُكلَّف به . جاءوا بخيمة مربعة . وغرسوا في كل ركن من أركانها عودا من الصلب يحمل في رأسه قطعة لحم

كبيرة . وفي كل ركن من هذه الأركان أيضًا رُبـــط سر كبير . وجلس الملك وسط الخيمة . . . ولبث في مكانه لا يَرِيم .

وبعد حين ، ذاقت النسورُ مَسَّ الجوع ، ورنت أبصارها إلى فوق . فوجد كل نسر فوق رأسه قطعة كبيرة من لحم شَهِيّ . . . فأخذت في الطيران جميعًا . . . وكانت كلما ازدادت جوعا ، ازدادت إصرارًا على الصعود محاولة أن تبلغ قطع اللحم التي كانت بطبيعة الحال تعلو ، كلما علَت النسور وارتفعت . !

وأخيرًا أدركها الكَلال والإعياء ، وحطم الجوع والجهد المَنْزُوف قُواها . فلا هي تدرك اللحم فتأكل ، ولا هي هاجعة مستريحة من النَّصَب . . !

وهكذا هوَتْ إلى الأرض مهدودة القوى . وهوَى معها الملك مدغدغ الأضلاع . ! !

أَوَعيْتم هذه القصة جيدًا . . ؟

أَلَا إنه عَبْر الزمان الطويل ، هَمَّ بعض دُعاة الدين ، مسيحيين ومسلمين ، أن يجعلوا من الناس نُسورًا مخدوعة ، إذ أغرقوا في تحدثهم عن الزهد إغراقًا ، جعل منه ، أعني الزهد قطعة اللحم التي ستردُّ عن أرواحهم حِدَّة الجوع والسَّغب . .

وما كان الدين الصحيح ليفعل هذا ويرضاه .

« قلْ مَن حرَّم زينةَ الله التي أخرجَ لعباده ، والطيباتِ من الرزق . . ؟ »

« قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا . . »

وإنها لعبارة جليلة ، وآية دقيقة التركيب ، دقيقة المفهوم .

« الطيبات من الرزق » . .

فهي تنفي وتستبعد كل ما كان خبيثًا .

وهذا هو الحد الفاصل بين ما ينبغي للناس أن يزهدوه ، ويرفضوه ، وما يحق لهم أن يأخذوه وينعموا به . .

فإذا ترك الإنسان الدنيا ، وعلّق بصره بالقِيم التي اصطنعتها له ظروف غير طبيعية ، من زهد منطرف ، واعتزال ، ونبذ كامل للحياة . أملاً في الوصول إلى تحقيق ذاته ، وتحقيق تبعاته في الأغلب من صُور هذا النزوع سيجد بصره مشدودًا إلى قطعة لحم ليس إلى إدراكها سبيل . . .

لقد عاش الناس دهرًا مديدًا . وهم مخدوعون بقطع اللحم الطائرة .

فعَل ذلك بهم سادتهم الذين كانوا يَعْلُونَ في الأرض عُلُوًّا

كبيرًا ، ويسخَرون لشهواتهم كل شيءٍ . ويتخذون من البشر - جميع البشر- رقيقًا وعُبدانًا . . .

وكانوا يطلقون أمام أعينهم السَّغْبانة قطعًا من اللحم مختلفة ومتنوعة ، ليهدئوا بها روعهم ، ويختلسوا جهدهم .

تارة تَتمثَّل قطعة اللحم في أن السلطان ظل الله في أرضه ، فكل تضحية في سبيله مثوبتها الرضوان . . !

وتارة تتمثل في أن الدنيا جيفة قذرة لا تليق بذوي الهمم العالية من الرجال . . !

وتارة تتمثل في أن خالق الخلق ، قد قسم الرزق . ولِكُلٍّ حَظُّه المعلوم . فمن حاول المزيد ، فقد أسخط الله ، وكفر بقضائه .

ولكن الدين يوم جاء لم يكن غافلا عما يعمل الظالمون ولا غافلا عما يَأفِكُ المبطلون .

فقد ذهب يجلجل في وعي الناس أن ليس لله سبحانه ظل على الأرض ، سوى العدل ، والرحمة ، والمحبة . . .

أمَّا السلاطين السفهاء ، فظلال الشياطين . . !

وذهب يخبرهم أن الحياة لم تُخلق ليبصق عليها . بل ليقدسوها ، وليعملوا أعظم العمل ، ويسعوا أبلغ السعي ، حتى

يزيدوها عمارة ، وبهاء ، ونموًا . .

كذلك بدّد في قوة ، أوهام العجز التي كانت تقول لهم ، ليس في الإمكان أبدع مما كان . . ودعا القُدْرات البشرية إلى محق كل ظلم ، ومقاومة كل إعنات . وتحويل الحياة إلى مكان أفضل وأبهج وأسمى . . !

أجَلْ . .

من أجل تحرير البشرية جاء موسى ، وعيسى ، ومحمد ، وإبراهيم ، وبقية رفاقهم من المرسلين .

تحريرُها مِمَّ ؟ ؟ ؟

ليس من الملوك الطاغين ، والقياصرة المدمرين ، فحسب . .

بل ومع ذلك ، من الأوهام التي كانت تُكبِّل عزمها ، وتطفئ نور الله في عقلها .

وهكذا نفهم كلمة المسيح حين يقول :

« جئت أدعو المأسورين إلى الإنطلاق » .

ونعي كلمة محمد وهو يقول :

– « إنما أنا رحمة مُهداة » .

فأسرى العجز لا ينطلقون إلا إذا جاوزوا مخاوفهم وأوهامهم .

والرحمة المهداة ، لا تحقق وجودها إذا بقي الناس في حضيض عاداتهم الذهنية والاجتماعية القديمة التي كانوا عليها ، يوم لم يكونوا يعيشون لأنفسهم بِقدرِ ما يعيشون لسادتهم الباغين .

يجوعون ، ليشبعوا . . ويزهدون ليقتنوا ، ويموتون تحت سنابك خيلهم المطهمة ، وصافناتهم الجياد . . ! ! ! !

فلينطلق الناس نحو الحياة . وليأخذوا في شوق وإصرار كل طيباتهم . فهي لهم . . .

وإن الدين لم يأت ليبارك الجوع واليأس . بل جاء ليكون سنادًا للناس في دأبهم الحثيث على ممارسة العمل من أجل عيشة راضية وحياة حافلة .

ولن يكون أبدًا ، عقبةً في سبيل الحياة ، وطَيِّبَات الحياة

الاستعمار الحاد

نحن ، شعوب هذه المنطقة ، نعيش في البلاد التي ظهر فيها موسى وعيسى ، ومحمد . . .

وتنعكس على حياتنا ، وعلى مطامحنا ، تلك الحقائق الخالدة التي جاء بها الرسل الثلاثة ، والتي اتفقوا عليها ، وبذلوا جهدا مشتركا لتثبيتها ودَعْمِها . . .

وأُولى هذه الحقائق أن الله خلق عباده أحرارًا . . ويريد لهم أن يعيشوا أحرارًا . . .

ولقد قاوم موسى فرعون من أجل الحرية . . .

وحاول المسيح في عمره المبكر أن يضع عن كاهل المأسورين نِيرَ قيصر . . .

وعلى يد محمد أتمت عمليات المقاومة آخر مراحلها ، وأجهز الإسلام على كسرى ، وقيصر . . وطوى بيمينه الضاربة

الامبراطوريتين اللتين كانتا تستعمران معظم الأرض . . امبراطورية الروم ، وامبراطورية الفرس . . !

ولقد ظهر الاستعمار على أرضنا هذه ، في عصر متقدم جدًا . .

ولكن الاستعمار الحديث الذي شنّته على العالم دول الغرب الأوروبي ، ربما يبدأ في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي على يد أسبانيا .

أسبانيا . . ؟ ؟ !

لعلنا الآن نعجب لهذا . . ولكن ليست أسبانيا وحدها هي التي مال استعمارها للغروب ، وتوارَى أمام زحف الحرية وتقدمها . بل هناك امبرطوريات أخرى كثيرة لم يبق منها سوى العبرة والمثل . !

فقد كان ثمة « امبراطورية ألمانية » استحوذت على تنجانيقا ، والشمال الشرقي من غينيا الجديدة كما سيطرت على التوجو ، والكامرون والجنوب الغربي من أفريقيا . . .

فأين ذهبت ، وذهب استعمارها . . ؟

وكان ثمة امبراطورية برتغالية ، واستعمار برتغالي ، يبسط جناحه على المحيط الهندي ويبسط جناحه الثاني على طول الشاطئ

الأفريقي .

وكان هناك امبراطورية هولاندية تحتل باستعمارها العاتي سِيلان ، وجاوا ، وسومطره ، وكل أندونيسيا .

بل كانت كذلك تستعمر جزءًا هامًا من أمريكا .

وكانت « نيويورك » هذه التي تقوم فيها اليوم الأمم المتحدة . إحدى مدائنهم . وكانوا يدعونها « امستردام الجديدة » ! ! !

وكان هناك امبراطورية النمسا والمجر ، وكـــان هناك الامبراطورية البريطانية والفرنسية ، وكان الاستعماران الإنجليزي والفرنسي يثقلان على الأرض بأوزارهما . ويلقيان ظلهما الكريه على كل مكان ، في آسيا ، وفي أفريقيا ، بل وفي أوربا أحيانًا . . وفي العالم الجديد ، حيث كانت الولايات الأمريكية تدين بالولاء للوطن الأُم ، وتدفع له الجزية والضريبة ، حتى تبينَتْ أخيرًا على يد « توم بين » أنه ليس وطنًا ، وليس أمًّا . . وإنما هو استعمار ولصوصية . . .

هذه قصة الاستعمار في سطور. عملاق عاش على دماء الغافلين يوم كان التاريخ حدثًا ناشئا . . فلما استيقظ النوام ، وشبَّ التاريخ وفتح عينيه . هُزِلَ العملاق وتلاشَى ، وكنسته ريح الحرية إلى منفًى سحيق . . .

ترى هل ينتكس التاريخ ، ويعود طفلا . . ؟

وهل يُبعَث الاستعمار مرة أخرى ليمضغ البشرية الناهضة ، ويعيدها أشْلاءَ ومِزَقا . . ؟

ليس ثمة ريب في استحالة هذا الوهم ، وبُعده عن العقول .

ومن خلال هذه المُدْركات ، تتبين شعوب البلاد العربية طبيعة دورها ، وكل الواجبات التي يفرضها عليها هذا الدور وتُمْليها . .

إننا نحمل عبئًا ثقيلا جدًا .

فآخر جولات الاستعمار تتم اليوم على أرضنا وهي جولات يائسة، وصحيح أن ضربة اليأس تنتهي بالخيبة والهزيمة . بيد أنها تستجمع كل قُوى الضارب ، ومنتهى إمكانياته .

ولقد كُتب على سكان هذه المنطقة أن تكون هذه الضربة من نصيبهم ولكنهم سَيُثابون عليها ، ليس فقط بتحرير أنفسهم وبلادهم ومصيرهم . . بل وبالذهاب بشرف الإجهاز النهائي على الوثن الجبار « الاستعمار . . ! »

على أن مكافحتنا الاستعمار تُمثل معنى آخر باهرًا ، إذ هو امتداد لدورنا التاريخي الذي فرضته رسالات الله ، هذه الرسالات

التي اختارت منطقتنا لتكون أرض تحركاتها ، وموطن نشاطها . .

فنحن نناهض الاستعمار ؛ لأنه سَرِقَة لأرزاقنا .

ونناهضه ؛ لانه تمزيق لوَحدتنا .

ونناهضه ؛ لأنه عدوان على حقوق الإنسان فينا . .

وأيضًا نناهضه ، لأنه إلحادٌ بشع . .

إلحاد في آيات الله ومشيئته . .

وإلحاد في حقوق الإنسان وحريته . .

وهكذا ، فنحن في عصياننا الباسل للاستعمار ، وفي مقاومتنا الرشيدة لصَلَفه ومحاولاته ، إنما نرفع لواء الله ، ولواء الإنسان ، ونمضي تحت راية الدين ، وراية الحضارة . . .

إن الغرب المسيحي يفضح نواياه ، حين يصر على الاستعمار في نفس الوقت الذي يؤكد فيه غيرته على الدين ومقته الإلحاد . . .

فمن أيّ كلمات المسيح أخذ جواز المرور إلى الأرض الحرة التي يريد أن يحولها إلى مستعمرات . . . ؟ ؟

ومن أيّ كلمات محمد ، يريد منا أن نستجيب لما يدعونا إليه من ضَيم ، ومذَلّة . . ؟ ؟ !

إذا كان الغرب الغيور على الدين ، يخشى علينا الفتنة والكفر .

فإن موقفنا منه ينبغي أن يزداد صعوبة وتعقيدا .

فهو يريد استعمارنا . . .

وفي نفس الوقت يودُّ – حسب ظاهر منطقه أن نزداد بالدين – أيٍّ دين – التحاما ، ونزداد له ولاء . .

والولاء للدين يتطلب أول ما يتطلب دغدغة الاستعمار وإهانته .

والاستعمار في بلادنا ، لم يجئ حتى الآن إلا من ذلك الغرب .

وهكذا تتجسم المشكلة ، وتبدو خيبة أمل الغرب مريرة.. ! !

على أنه ليس من واجبنا أن نضع لهذا الإشكال حلا .

ولكن الحلول المطلوبة منا اليوم ، هي لمشكلتنا مع الاستعمار نفسه .

ليس علينا ، أن نُنَسِّق له منطقه ، حتى يبدو غير مُهلْهَل ، وغير متناقض .

بل ربما يجب علينا أن نفضح هذا التناقض إذا استطعنا .

إننا من كافة الوجوه مكلفون بمقاومة الاستعمار والإجهاز عليه في جولته الأخيرة .

وبذلك نحقق أبهى مظاهر الإيمان بالله . وبالإنسان . .

الناس اخوة

بين الدين والطبيعة تبادل مستمر ، فهو يأخذ منها ويَصبُّ فيها .

يضع عينه على ضروراتها . . ثم يستجيب لها بتعاليمه فيزكيها . . ويدعو للموقف الصحيح تجاهها . . .

وإذا قلنا : الدين . . فنحن نعني روحه ولُبابه المستهدِفَيْن دائمًا سعادة الإنسان وخيره . .

ومن هذه الأشياء التي يلتقي فيها الدين والطبيعة لقاء سعيدًا ووثيقًا . الاجتماعي والإنساني . . .

فالاجتماع ضرورة . . وليس في مقدور الإنسان أن يعيش وحده . والعزلة وَهْم . . ونحن في أقصى حالات اعتزالنا نشارك الناس ويشاركوننا دون أن ندري . . .

ولقد سارع الدين إلى تلبية هذه الضرورة وعمل على دَعْم

الأخاء البشري بكل سبيل مستطاع ، فالناس إخوة . . .

وأخوتهم هذه ، حقيقية ، لا مجازية . فأبوهم واحد . بل إن الأخاء لينفسح ويتراحَبُ حتى يشمل الكائنات كلها .

ولقد كان جليلا وصادقا ، القديس « فرانسيس » حين قال :

« أخي الطير» . . . ! ! !

أجل . إن كل ما في كون الله أخ لنا ورفيق . . وإحساسنا بهذه الأخوة ينفذ بنا إلى أسرار الكون الكبرى وحقائقه الخالدة .

والفترات الرضية العظيمة في تاريخ البشر ، هي تلك التي كان يتفوق فيها التعاون على الخذلان ، والإخاء ، على الفرقة . . .

وللدين في تزكية الأخاء البشري دور جدّ عظيم .

ها هو ذا المسيح يرسل القول والتعاليم كَسنا الفجر .

« سمعتم أنه قيل تُحبُّ قريبك وتُبغِضُ
عدوك . . وأما أنا ، فأقول لكم : أحبوا
أعداءكم ، باركوا لَاعِنيكم ، أحسِنوا
إلى مُبغضيكم . وصَلُّوا من أجْل الذين
يُسيئون إليكم ويَطردونكم . . . »

ثم يبين أن هذا السلوك سبيل الكمال الذي يطمح إليه المؤمنون فيقول :

« لأنه إن أحببتم الذين يُحبونكم فأيُّ أجرٍ لكم أليسَ العشّارون أيضًا يفعلون ذلك . . ؟ ؟ »

« وإن سلَّمتم على إخوتكم فقط ، فَأيُّ فضل تصنعون ؟ ؟ . أليس العشّارون أيضًا يفعلون هكذا ؟ ؟ . »

« فكونوا أنتم كاملين ، كما أن أباكم الذي في السموات هو كامل . . . »

وهذا هو محمد عليه السلام ، لا يترك سببًا من أسباب إيناع الأخاء والتكافل إلا سلكه وأتاه .

وفي أحاديثه التي ترسم آداب الحديث ، وآداب المشي ، وآداب المعاملة ، وآداب العلم ، وآداب الاجتماع كله . . . نُبصر فيضًا مشرقا يبهر الأبصار . . !

فهو يرعى الأخاء والمحبة والتعاضد في كل مواطن الحياة . . في البيت ، وفي الشارع ، وفي السوق . . وحيث يلتقي إنسان بإنسان . .

ويبدأ فيعلن في حديث له أن يسأل عن صحبة ساعة . . ! !

أي أنك إذا التقيت صدفة بإنسان ، فإن الله سائلكما عن الدقائق التي ستقضيانها معًا . . .

ثم يقول :

« لو كنت آمرًا أحدًا أن يَسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها » . . .

ويقول :

« إياكم والظن ، فإن الظنَّ أكذبُ الحديث . ولا تجسّسُوا ، ولا تَحسَّسوا ، ولا تَنافسوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تَباغضوا ولا تَدابروا وكونوا عباد الله إخوانًا »

ويقول :

« إذا كانوا ثلاثة ؛ فلا يتناجى اثنان دون الثالث ؛ فإن ذلك يحزنه » .

ويقول :

« لا تؤمنوا حتى تحابُّوا » .

« إذا أحبَّ أحدكم أخاه ، فَلْيخْبِرهُ أنه

يحبه » .

ويقول :

« ما مِن رجل يعود مريضًا إلا خرج معه سبعون ألف ملك يستغفرون له » .

« والذي نفسي بيده . لأن أمْشِيَ في حاجة أخٍ لي حتى تقضى ، أحب إلي من أن أعتكف في مسجدي هذا شهرًا » .

ويقول :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فَليكرِم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جَاره » .

ويقول :

« لا يحلُّ لمؤمن أن يَهْجُرَ مؤمنًا فوق ثلاث » .

ويقول :

من رأى عورَة أخيه ، فستَرها ، كان

كمن أحيا مَوْءُودة » .

* * *

والصداقة الإنسانية كالكائن الحي ، تموت جوعًا إذا لم تجد غذاءها . . وغذاؤها في كل حركة طيبة . . .

في البسمة الصادقة ، في الكلمة الحلوة ، في المعاونة اليسيرة العابرة . . .

وإنا لنبلغ من العظمة نفس المستوى الذي نبلغه من مشاركتنا الآخرين في سرائهم وضرائهم .

وحين نبذل للناس من ذوات أنفسنا مودة وصفاء ، فإن الحياة بين الباذل والمبذول له تتحول إلى بهجة أكيدة ، وتتوارى كل مُنغِّصاتها ، وتذوب في حرارة هذه العاطفة الودود الصادقة .

والعلاقة بين الإنسان والإنسان ، من أثمن ألوان نشاطنا .

والدين الذي يدرك هذا ، يدعونا لأن نكون أكفاء لهذه العلاقة ، حريصين عليها . . . وهذا يقضي أن نرعى كافة حقوق الأخاء البشري رعاية كاملة ، ونعمل على توسيع نطاقه .

ومن هنا سر دعوته الحارة إلى التسامح والبذل .

فأنت لا تحسن مؤاخاة الناس ، إذا تتبعت عوراتهم ،

وتَسقَّطْتَ زلّاتهم . .

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا ذكرت لهم نقائصهم ، وتناسيت فضائلهم ومزاياهم .

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا أردت أن تكون آخذا فحسب ، ولست معطيًا .

ولا تحسن مؤاخاتهم ، إذا بخلت عليهم بكلمة اعتراف وتكريم ، وإذا لم تجعل عناءهم موضع ازدهائك ، وإطرائك وتقديرك .

ولا تحسن مؤاخاتهم إذا أردت أن يكونوا طبعات مكررة لك وأن يلغوا آراءهم من أجل رأيك .

فالإخاء ، والصداقة يعنيان أن يكون هناك أكثرمن واحد . . اثنان أو ثلاثة ، أو ما شاء الله من كثرة . لأنها تفاعل وتبادل . فمحاولتك التفرد والأثرة ، يبطلان حكمة الصداقة ، وينفيان قيامها .

وما ترك الدين ذلك ، ولا شيئًا من ذلك ، إلا ألقى عليه إشارة ضوئية تشير إلى أهميته ، وإلى حتميته من أجل إينَاعِ الأخاء الإنساني بين الناس .

فلنفسح الطريق للكلمة

ذات يوم ، قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابي يسأله نصيبًا من الفيْ . . وأخذ مكانه من الصَّف ، ومضى الرسول يعطي الناس ، وبعد أن أنتهى من توزيع الأعطيات ، اندفع الأعرابي نحوه في غلظة وبَدَاوة ، وجذبه من جُماع ثوبه وهو يقول :

- يا محمد ، زدني . . فإن المال مالُ الله ، وليس مال أبيك . . .

وابتسم الرسول عليه السلام في رضا عظيم . . . وقال : وهو يهز رأسه . . .

- صدقت يا أعرابي . . المال مال الله . . ! ! !

ولكن الصحابة الذين شهدوا هذا الحوار ، آلمهم أبلغ الألم فظاظة الأعرابي ، وسوء تصرفه . . . وكان أكثرهم امتعاضًا

عمر بن الخطاب رضي الله عنه . . فشق الناس كصفحة السيف ، وواجه الأعرابي هاتفًا :

– دعني يا رسول الله أضرب عنقه

فازدادت ابتسامة الرسول تألُّقا ، وقال :

« دَعْهُ يا عمر. فإن لصاحب الحق مقالا » . . ! !

هذا مشهد . . .

وهناك مشهد آخر ، حين وقف عليه السلام يخطب أصحابه فقال :

« ألا لا يَمنعنَّ رجلا هيبةُ الناس أن يقول بحق إذا عَلمه » . . .

ومشهد ثالث . . .

حين راح يعلِّم أصحابه فيقول لهم :

« لا يكونن أحدكم إمَّعة يقول : إذا أحسنَ الناسُ أحسنْت ، وإن أساءوا أسأت . . .

« ولكن لِيُوطِّن أحدكم نفسه ، إذا أحسن

الناس أن يُحسِن ، وإذا أساءوا أن
يتجنّب إساءتهم » .

هكذا يدعو محمد عليه السلام إلى الموقف الرشيد الذي يجب على كل إنسان أن يتخذه تجاه الحق والباطل .

يقول كلمته ، مؤيدًا الحق دون مُبالاة بالعواقب .

ويقولها ، دامغا الباطل دون مجاملة أو تهيّب .

والحق والباطل يمازجان كل شئون حياتنا الدنيا ، ويختلطان فيها اختلاطًا يكاد يخفي معالمهما المُمَيِّزة .

ومن ثم كان دور الكلمة الحرة الصادقة الجريئة في تمييز الخبيث من الطيب عظيما ومحتومًا .

وليس ثمة واجب أقدس من واجبنا تجاه هذه الكلمة ، مسطورة كانت أم ملفوظة .

وهذا الواجب يتمثل في إفساح المجال أمامها حتى تنطق قوية كالحق ، ومبينة كفلَق الصبح .

الكلمة . . .

ما أروع ما تعبر عنه هذه الحروف اليسيرة . .

إنها لتشير إلى المفتاح الذي كان ، ولا يزال يفض أمام التقدم

الإنساني كل باب مغلق .

وما أكثر شهداء الكلمة عَبْر التاريخ . . .

كان سقراط شهيدها في معركة الحقيقة . . .

والمسيح ، شهيدها في معركة المحبة . . .

ومحمد ، شهيدها في معركة التوحيد الكبرى . .

وعشرات ، ثم مئات ، ثم آلاف من أفذاذ البشر. عبّدوا طريق الحضارة بالكلمة ، ثم قدموا حياتهم العظيمة قربانًا لها . . .

وليس يضيق بالرأي المخالف سوى مغرور صغير ، وإنما يفتح قلبه للرأي المعارض ، كل عظيم صادق العظمة ، مُضِيءُ الوجدان .

على أن الدين ، وهو يحمي الكلمة الشريفة من أعدائها ، لم يَنْسَ أن يحميها من أصدقائها .

وأصدقاؤها ، هم أولئك الذين يُفتنون بها فُتونا يقف بهم عندها ويعميهم عما سواها . . .

كما أنه وهو يدرك قيمة الكلمة ، حذَّر من الخطر الكامن في سوء استعمالها . .

فدعانا إلى التفكير قبل القول ، فإذا تكلمنا ، فعن سداد

وصدق .

يقول الله سبحانه . :

« وقولوا للناس حُسْنًا »

« وقولوا قولاً سَدِيدًا » . .

ويقول الرسول مُحذِّرا :

– « وهل يَكُبُّ الناسَ في النار على مَنَاخِرِهِم إلا حَصائِدُ ألسنتهم » ؟ ؟ !

ويعتبر الدين الكلمة المتجنية الظالمة بهتانا وإثما مبينًا ، والكلمة الموتورة الحاقدة ، ضلالا بعيدًا ، والكلمة الواشية الكاذبة ، خسرانا لصاحبها ، ووبالاً عليه . .

طالما كان الرسول يقول لقومه :

« لا تُحدِّثوني عن أصحابي شيئًا ؛ فإني أَحبُّ أَن أَخْرُجَ إليكم وأنا مُنْشَرِحُ الصدر» .

وبهذا السلوك الفذ ، يرسم حقًا آخر من حقوق الكلمة : ألَّا نقولها لِنوغر بها الصدور ، وألَّا نُصغي إليها إذا كانت تحمل هذا الغرض الحقير.

إن سلطان الكلمة ؛ وشرفها ؛ لا يتمكنان من أمة إلا رفعا شأوها وفتحا أمامها أبواب مستقبل فاضل وعظيم .

— ١٨ —

الجماعة والفرد

عناية الدين بالإنسان فائقة ، واهتمامه به مُثابر وعَميم .

وإنه لينظر إليه نظرة يلتقي فيها الحُبُّ بالإكبار ، والعطف بالإيثار ؛ لقاءًا سعيدًا وأكيدًا .

والإنسان في نظر الدين ليس مجرد حدث بيولوجي ، بل ولا مجرد كائن حي . . إنما هو مُمثل عظيم لِقيم عظيمة تتجسَّد فيه وتعمل عن طريقه . . . هو روح عاقل . قادر على أن يجعل من الفوضى نظامًا ، ومن النقص كمالاً ؛ لأن الله الذي بَرأه وسوَّاه ، قد هيَّأه لهذا الدور وأمدَّه من لِدُنْه بالعون الذي يجعل خُطاه سديدةً موفقة . .

والإنسان في نظر الدين ، هو النوع كله ، مُمثَّلاً في أفراده . . . وهو الفرد ، حاملاً خصائص نوعه . . .

ومن ثم ، نجد الدين ينجح نجاحًا بعيدًا في تحديد مكان الفرد

من الجماعة ، ومكان الجماعة من الفرد . من غير أن تَستدْرِجَه مَتاهاتُ الفلسفة أوالوهم .

أجل . من غير إيغالٍ في الجدَل . ودُون إطْناب في التدليل يهتدي الدين ويَهْدِي إلى العلاقة بين الفرد والجماعة ، في صورتها السَّوِيَّةِ الرشيدة .

والذي يفقه نصوص الدين وروحه – أيٍّ دين – لا يُعييه إدراك النظرة الدينية إلى هذه العلاقة .

وفي المسيحية والإسلام خاصة وتبدو القضية واضحة مُبينَة .

* * *

فالفرد في منهج الدينَيْن . هو اللَّبِنَة الحيَّة التي ينهض بها وعليها الكيان الإنساني . . كِيان النوع بأسره .

والإيمان بالفرد ووضعه في مكانه الحق لا يعنيان الاعتراف بالواقع فحسب . . بل ويعنيان إعطاء هذا الواقع فرصته في الامتداد وتحقيق ذاته .

فالفرد . يعني – المسؤلية – .

وكل استبعاد للفرد من حركة الحياة ، يعني إهدار أعظم مبادئ الحياة – المسئولية .

وإذا اختفت المسئولية . فقدت الحياة الإنسانية مقوماتها ، بل قولوا : فقدت ذاتها .

فالمسئولية تبدأ مع الفرد ، وتبلغ كمالها في حركته الحرَّة الدائبة .

ومن ثَمَّ رأينا الدين يخاطب الإنسان الفرد بكل تكاليفه ، ويجل منه موضوع الشرائع والرسالات .

« من له أُذنان للسمع ، فليسمع »

« ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله
وخسر نفسه »

« من أراد أن يخلص نفسه يُهلكها ،
ومن يهلك نفسه من أجلي . يجدها »

هكذا تكلم المسيح مُحملا الإنسان الفرد مسئوليته عن نفسه . . عن فَرْديته . مقررًا بهذا ، الوجود المستقل للفرد الإنساني والحقوق الطبيعية التي تقتضيها مسئوليته .

ويتحدث القرآن الكريم في الموضوع ذاته :

« مَن عَمل صالحًا فلنفسه »
« ومَن أَساء فَعَلَيْها » .

« يوم تَجِدُ كلُّ نفس ما عَمِلَتْ من خير مُحْضَرًا وما عملتْ من سُوء » .

« وتُوَفَّى كل نفس ما عَمِلَتْ وهم لا يُظلمون »

« فَمنكم كافر ، ومنكم مؤمن . والله بما تعملون بصير »

« فمَن يعمل مثقال ذرة خيرًا يَرَه »

« وَمن يعمل مثقال ذَرَّة شرًّا يره »

« فَمَن أبْصَر فَلِنَفْسه . ومَنْ عَمِيَ فعلَيْها »

ففي هذه الآيات أيضًا يخاطب القرآن الفرد الإنساني . مُعلِّما إياه أن حياته . إنما هي مسئوليته وحده . وأن نفسه ومصيره إنما يُشكِّلان واجبه وحقه . . مسئوليته وحريته . .

وقيمة الفرد الإنساني لَدَى الدين تَتمثّل أول ما تتمثَّل في هذا الموطِن الجليل . . والمعنى الباهر .

فإذا كان النوع الإنساني قد اختْبِرَ واصْطُفِي . ليحمل كلمة الله وينفَذ فوق الأرض مشيئته . فإن الفرد – أولا – هو الذي يتشكل منه النوع كله . . والفرد – ثانيًا – هو الذي تناط به

مسئوليات هذا التكليف وهذا الاختيار.

ومن مسئولياته كفرد . تتشكَّل المسئولية الجماعية كلها .

وكما قلنا من قبل : إن الدين لا يرى في إقرارالفردية الإنسانية مجرد اعتراف بالواقع . بل هويُضمِّن هذا الإقرار مسئوليتنا تجاه هذا الواقع بتمكينه من تحقيق ذاته .

فالفرد الإنساني هو الذي يخاطبه الدين بتعاليمه . . هو الذي يتلقى أوامره ونواهيه . . هو الذي يحمل أمام الله مسئولية حياته . ومسئولية مصيره . وهو الذي يُزكِّي نفسه أو يدُسُّها في التراب . .

« وَمن جاهَد فإنما يُجاهد لنفسه »

« ولا تكسِبُ كل نفسٍ إلا عليها »

« وأنْ لَيس للإنسان إلا ما سَعَى »

« وأنَّ سعيَه سوف يُرَى »

« ومَن يَكسِبْ إثما ، فإنما يكْسِبُه على نفسه » .

هكذا تحدث القرآن العظيم .

فالفرد – أيُّ فرد – دولة مستقلة ذات سيادة . . . له حقوقه وعليه واجباته .

وهو يحمل من القدْرات الممنوحة له من بارئه سبحانه ، ما يجعله قادرًا على أن يُمارس حقَّه وواجبه في مُستوى الخير العام . . وتلك هي عظمة الإنسان ، بل بهذا صار الإنسان إنسانًا .

ففرديته لا تعمل ولا تستطيع أن تعمَل في عزلة وخَواء – إنها ملتحمة الوشائج والأسباب بالجماعة الإنسانية كلها ، وهنا نلتقي بعلاقة الفرد بالجماعة كما يراها الدين .

إن الجنس البشري عند الدين ، حامل رسالة عظمى . .

هذه الرسالة لا يستطيع فرد مهما يطل عمره وتتنوَّع عبقريته أن ينفرد بأدائها . بل ولا يستطيع ذلك جيلٌ بأسْره ، ولا أجيال بأسْرها ، ولو اجتمعت على قلب رجل واحد . . .

ذلك أن هذه الرسالة – رسالة النوع البشري بَعيدة المُنتَهى إن كان لها مُنتهى .

وإذْ كان لكل فرد دور في هذه الرسالة ؛ فإن دوره يجب أن يُؤدَّى وَفْق مُقتضيات الرسالة نفسها .

ورسالة البشر في الحياة ماثلة في تحقيق أقصى غايات الكمال الميسور ، الكمال الروحي ، والكمال المادي .

وسير الجماعة الإنسانية نحو تلك الغايات العُلَىَ ، يعني ويتطلب

أن يؤدي الفرد واجبه ودَوْرَه ويملأ جميع الفراغ المحجوز له بين صفوف الجماعة .

وعمل الفرد مع الجماعة في جيله وعصره ، مُساوٍ لعمله مع النوع الإنساني بأسْرِه .

أي أن الإنسان الفرد ، حين يؤدي واجبه ويُنجز مسئوليته في مُستوى القِيم الصالحة التي تهدي عصره وجيله ، يكون بهذا قد أدَّى واجبه ، لا تجاه هذا الجيل الذي عاصره فحسب ، بل تجاه نوعه الإنساني كله . . . ويكون كأنه قد عاش عُمرِ النوعِ الإنساني كله عاملاً معه وفي سبيله . . .

* * *

وعمل الفرد الإنساني مع جماعته ، يُؤَهِّلُه لترقية نفسه وذاته .

إذ أن هذا العمل مع الآخرين ومن أجْلهم ، يطهر الفرد من أنانيته ويساعده على تخطِّي تُخومه القريبة المحدودة ، وينقله من صفوف الذين لا يعيشون إلا ليأخذوا . . إلى صفوف أولئك الذين جاءوا الحياة لِيُعطُوا . .

يقول الإنجيل : —

« وأما مَن عَمِل وعلَّم ؛ فهذا يُدعى

في ملكوت السماوات عظيما » .

ويقول القرآن :

« فأمَّا مَنْ أعطى واتَّقى وصدَّق
بالحُسْنى فَسَنُيَسِّرُهُ لِليُسْرَى »

أجل – إن العطاء هو الميزان . .

وقدركل إنسان عند ربه – وفي جماعته ، ومجتمعه ، مُساوٍ للقدْر الذي يعطيه الحياة والأحياء .

وليس معنى العطاء هنا قاصرًا على العطاء المالي . . صدقة أو تبرعًا ، أو مكافأة . .

لا – بل العطاء بأوسع وأجزل معاني العطَاء

فالكلمة الطيبة الهادية ، عطَاء . .

والاختراع النافع ، عطَاء . .

والحُكْم الصالح ، عطاء . .

والنقد النزيه ، عطاء . .

وبذلُ العون لمحتاجه ، عطاء . .

وإقرار العدْل ، عطاء . .

وحُبُّكَ الناس ، عطاء . .

وإقالةُ العثَرات ، عطاء . .

وسَتْر العوْرات ، عطاء . .

وكل بذلٍ تتطلبه الحياة والجماعةُ منك في غير إرهاق لك أو بغي عليك . فإنما هو عطاء ، يرفع قدرك ويزيد أجرك .

والفرد مطالَب بأن يعطي كل ما يستطيع إعطاءه – ولقد عاب القرآن الكريم قومًا يعطون أقلَّ مما يستطيعون فقال :

« أفرَأيتَ الذي تولَّى.

وأعطى قليلا وأَكْدَى »

فالعطاء ، هو الرابطة التي تربط الفرد بجماعته ، وتجمعه وإيَّاها على سوَاء . .

والعطاء هنا ، هو الواجب .

والتعبير عن الواجب بالعطاء ، يرفع من قيمة الواجب إذ يجعله عملا من أعمال الضمير ، لا من أعمال القانون . .

يجعل الرغبة ، لا الرهبةَ مَصْدَرَه . .

كما يجعله مَثُوبَة نفسِه ؛ لأن الذي تحوَّل الإلْزام لَدَيْه إلى

شغف . . والواجب إلى عطاء ، يكون قد بلغ من توفيق الله له ونعمته عليه الشأو العظيم الذي يجعل حياته كأنها هدية الله إليه . . !

* * *

وهذا العطاء . . هذا البذل في سبيل الخير العام للمجتمع وللناس ، هو كذلك – المعيار الذي يُحَدد شرف الإنسان الفرد ، فليس شرف الفرد وكرامته إلا انعكاس عطائه السَّديد من أجل الحق والخير في مجتمعه وعالَمه .

وكل أمجاد الأرض لا تغني شيئًا عن الفرد الإنساني الذي يأخذ ولا يعطي . . وإذا أعطى جاء عطاؤه زيفًا وغشًّا . .

وكل أمجاد العصَب والنَّسَب ، لا تغني صاحبها شيئًا ، ما لم يكْرمه الله ويشرفه بتوفيقه لأن يُعطي الحياة من خير نفسه وعَمِله .

يقول المسيح عليه السلام :

« لا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم ، لنا إبراهيم أبا ، لأني أقول لكم : إن الله قادر أن يُقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم » .

ويقول القرآن الكريم :

« إن أكرمكم عند الله أتْقاكُم » .

ويقول الرسول عليه السلام :

لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى
وليس لابن البيضاء على ابن السوداء
فضل إلا بالتقوى » .

* * *

وحين تقوم العلاقة بين الفرد الإنساني والجماعة الإنسانية على هذا النَّسَق ، يصير من الممكن أن ينال الفرد أقصى غايات حقه في الحرية والإرادة والاختيار .

كما يصير من الممكن أن ينال المجتمع أقصى آماد حقه في الولاء والتعاضُد والإيثار .

وتصبح حرية الفرد ، بركة على المجتمع وعونًا له . .

وتصبح سيادة المجتمع ، سيادة للفرد وإنماءً لوجوده . .

هذا هو نهج الدين – في إيجاز – وهذه نظرته إلى مكان الفرد في الجماعة ، ومكان الجماعة من الفرد .

وحين تستقيم الأمور على هذا النحو ، يحيا الناس حياة راضية .

وحين يَحِيفُ بعضٌ على بعض ، ويطغى المجتمع على الفرد ، أو يتنكر الفرد للمجتمع ويفقد الولاء المتبادَل بينهما إرادته وَرُشده ؛ فآنئذٍ تناديهم كلمات ربهم .

« إنَّ اللهَ لا يظلم الناسَ شيئًا ولكنَّ
الناسَ أنفُسَهم يظلمون »

كل شيء للإنسان

تجتاح بعض الناس أحيانًا فكرة مغلوطة عن الدين .

ويقوم في رُوعهم وَهْمٌ عريض ، يُحدثُهم أن الدين يمتهن الإنسان حين يملي عليه طريقة حياته ، وحين يُكبِّل إرادته ويضعه داخل دائرة مغلقة من الحَظْر والتحريم .

وضحايا هذا الوهم يجيئون دائمًا من الذين لا طاقة لهم بالبحث والتأمل والتفكير .

ذلك أن أيّة نظرة عاقلة يتجه بها ناظرها نحو العمق لا بد وأن تُفيءَ على صاحبها فهما مُضيئًا لحقيقة الدين .

فالدين – كلُّ دين – كرَّم الإنسان أبلغ تكريم .

ويبدأ التكريم بإعلام الإنسان أن كل شيءُ في أرضه وكوكبه ، بل وخارج أرضه وكوكَبه ، مُسخَّر له ، وموضوع في خدمة مصيره

فالإنسان عند الدين ملِك عَالِمه المُتوَّج ، وسيده المطاع .

هتف بهذه الحقيقة المسيح حين قال :

« إنما جُعل السبت للإنسان ، ولم يُجعل الإنسان من أجل السَّبْت » .

أي أن كل شيئ في عالَمنا ، قد جُعل في خدمة الإنسان . وليس العكس .

وهتف بها القرآن حين قال :

« وسخَّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعًا مِنه » .

بل إن القرآن الكريم ليفيض في تعداد الكائنات المسخَّرة للإنسان إمعانا منه في توكيد سيادته ورفع لوائه .

فالبحار ، والأنهار ، والليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم كل أولئك مسخّرات للإنسان .

انظروا واقرأوا :

« وهو الذي سخَّر البحرَ لتأكلوا منه لحمًا طَرِيًّا » .

« وسخَّر لكم الأنهار» . . .

« وسخَّر لكم الشمسَ والقمر دائبين » . .

« وسخَّر لكم الليلَ والنهارَ » . .

« والسَّحابِ المسخَّرِ بين السماء والأرض »

« والنجومُ مُسَخَّراتٌ بأمره » . .

* * *

في هذه التزكية الباهرة للإنسان يكشف الدين عن مدى تقديره الإنسانَ ، ومدى تكريمه إياه ، وحقيقة نظرته إليه .

فالإنسان ، ذلك العملاق الذي نهض قائمًا فوق أرضه ، ووَسْط عالمه لم يُخلق عبثًا ولا يُتركُ سدًى . .

« أفَحسِبتُم أنما خَلقناكُم عبثًا » . . ؟ ؟

« أيَحسَب الإنسان أن يُتْرَكَ سُدًى » . . ؟ ؟

لا . . .

إن الإنسان – كما يحدث القرآن – لم يخلق عَبثا ، بل خُلِق لدور عظيم ، لا حدود لعظمته . .

ولن يُترك سدًى ، بل سيُعينه الله على دوره ، ويُسخر له كل شيءٍ حوله ومعه . . كل شيءٍ تحته وفوقه . . ثم يسأله بعد عن نُكوصِه وتفريطه . .

* * *

وإن ما يأخذه الواهمون على الدين ، ويظنونه تحدِّيًا لإرادة الإنسان لَهُوَ في الحقيقة أصدق وأروع شواهد إكبار الدين للإنسان.

فالمسئولية التي يلقيها الدين عليه ليست تكبيلا لإرادته ، بل دعوة لها إلى العمل . . ليست ضغطا على حريته ، بل هُتافا باستخدام هذه الحرية . . ليست انتقاصًا من سيادته ، بل توكيدا لحقوق هذه السيادة . .

فأنت لكي تكون سيدًا في أسرتك ، أو في قومك ، يجب أن تكون أهلاً لتحمُّل مسئوليات هذه السيادة .

والإنسان فوق ظهر كوكبه ، سيد هذا الكوكب – وهي ليست سيادة الظُّفْرِ والنّاب ، بل سيادة التفوُّق والتَّكامُل . فمسئولياته إذن لا تعني شَحذ أنيابه وأظفاره . . بل تعني وتتطلب شحذ قُوى تفوّقه واكْتماله . . قُوى عقله وإرادته ورُوحه .

وهذا يعني أن تكون مسئولياته أخلاقية وعقلية .

ويعني أن تكون تدريبات عقله وروحه من نَمَطٍ يُتِيحُ للعقل وللروح أن يبلُغا في رعاية الله شأوَهُما .

فإذا دُعِيَ الإنسانُ إلى الإيمان بالله ، فلأنَّه بهذه العبادة ينشئ ولاءً لازما بينه وبين خالق الكون العظيم – الله رب العالمين . .

وإذا دُعي إلى عبادة الله ، فلكي يُنَمِّي داخل ذاته ووعيه القدرة على رؤية الأبعاد الأخرى غير المنظورة في الوجود والكون ، ولكي ترفعه لحظات العبادة إلى مجالات تلك الأبعاد فلا يظل مُخلِدًا إلى الأرض مفتونًا بها .

وإذا شُرعت له التكاليف فَلكَيْ تتدرَّب إرادته على الصمود والنمُوّ . .

وإذا دعاه الدين إلى الإيمان بالغيب كله فَلِكَيْ يُولِّي وجهه وعقله شَطْرَ الكون المملوء بالأسرار ليوسِّع من تُخوم وطنه ويُواصل خُطى تفوُّقه وتقدمه .

وإذا دعاه إلى الإيمان بالخلود ، فَلِكَيْ يزداد إيمانًا بنفسه واهتمامًا بمصيره .

* * *

كل هذا يشكِّل تكريم الدين ، واهتمامه بالإنسان الذي فضَّله الله على كثير ممَّن خلَق .

« ولقد كرَّمنا بني آدم ، وحملناهم في
البَرِّ والبحر ، ورزقْناهم من الطَّيبات
وفضلناهم على كثيرٍ ممَّن خَلَقْنـــا

تفضيلا . . »

* * *

هذه هي مكانة الإنسان ومنزلته عند الدين – سَيِّد كَوْكَبه وعَالَمه ، والجدير بكل ما لهذه السيادة من مزيَة وحق . .

بَيْدَ أَنَّ الإنسان مضى في دروب بعيدة ومتاهات نائية يلتمس فيها حكمة حياته !

ولئن كان من حقه أن يفعل ؛ فإن من واجبه ألا يُحطِّم المصابيح الذي وضعتها أقداره على طريقه .

وأول هذه المصابيح وأخلصها ضوءًا ، هو الدين .

ولو أن الناس يفقهون جوهر الدين . ويدركون رُوحَه ، لما هرب منه هارب . ولا أساء به الظنَّ لَاغِب . .

فجوهر الدين . وجوهر الإنسان تَوأَمان .

وهذا سرُّ حاجته الدائمة إلى الدين . أعني إلى جوهر الدين ورُوحه . . ففيهما يجد سكينته ويقينه وتُقاه . . وفيهما يلتقي بجميع نفسه ، وبحقيقة ذاته .

* * *

إن الإنسان الذي رفع مَراسِيَه وأبحر وسط الظلام والهَوْل

كان يجد في باطنه وتحت حناياه إرادة نافذة تُلِحُّ عليه ، وتُشيع في نفسه الأمل ، وفي خطاه العزم والتوفيق . .

في حُلْكَةِ الظلام . . في متاهات الزَمن . . تحت وطأة القوارع والزلازل . . في غمرات الجهل والتِّيه . . حيث لا أملَ له في نجاة . . ولا رجاء في حياة . . حيث تتساقط السماء كِسَفًا . . وتتفجر الأرض براكين . . وتسيل الأمواه طوفانا . .

حيث ذلك كله . . وأضعاف ذلك كله تلفُّ الإنسان في ضبابها الخانق ويأسها الجاثم ، كان صوت ينبعث من أعماقه يقول له : تقدَّم إن كل هذا الهول سيُلْقي بين يدي عَزمِك سلاحه ، ويتحوَّل بُخاره المحتدم إلى طاقة مُسَخَّرة لك وذَلُول . . ! !

ماذا كان مصدر هذا الصوت يومئذ . . ؟ الفلسفة . . ؟ العلم . . ؟

كلا ، فما كان مع الإنسان في تلك الدهور الغائرة الغابرة منهما شيء . وما كان معه سوى إحساسه الديني ، حتى قبل أن تتبَّين له حقيقة الدين .

فلما جاء الدين ، وجاء المرسلون ، وجد إحساسه القديم قاعدةً أطْلَقَتْ وَعي الإنسان وأضاءت بصيرتَه ورُوحَه . .

وصحيح أن الدين تعرض في مراحل سيرهِ وتَطوُّره لكثير

من الفتن وابْتُلي بكثيرين أساءوا استخدامه ، وحاولوا تطويعه لأهوائهم .

ولكن حتى تلك الفترات التي أصيب الدين فيها بالضَّعف ، تنهض كأعظم شاهد على مدى تكريمه الإنسان . .

فحين كان الدين متألقًا متفوِّقًا ، كان الإنسان مثله متألقًا متفوقًا ، عزيزًا . . كريمًا . .

وحين كانت الفتن تنتابُه ، والضعفُ يغشاه ، كان الإنسان بكل حقوقه يقف في مَهبِّ الزوابع . وتتوالى عليه الضربات والإهانات . .

حدث ذلك فيعصور ضعف المسيحية . حين استبدَّ بها وزيَّف حقيقتها بعض باباوات العصور الوسطى .

وحدث أيضًا في عصور ضعف الإسلام . حينما كانت الخلافة العباسية تنهار ، وحينما كانت الخلافة العثمانية تترنّح . .

إن الأديان تختلف في تفاصيلها من دين إلى دين ، لكن جوهرها جميعًا واحد . .

والإسلام مثلا ، اتَّسع فقهه واتسعت شريعته لمذاهب كثيرة ، وجرى بين شاطئيه نهر دافق من التفسيرات والآراء .

بَيْدَ أَنَّ جوهره واحد . . هوجوهركل دين جاء به من السماء وحي ، ومن الله هُدى .

وهذا الجوهر الثابت للدين هو الذي يحمي دائمًا وأبدا حقيقة الإنسان ، ويحفظها من أن تنال منها الفلسفات مهما تتسع ، والعلوم مهما تكتشف .

فاذا اكتشف العلم تأثير أمعاء الانسان وغُدده على سلوكه..رفع الدين صوته قائلا : ورغم هذا فإن بين جَنْبَيْه إرادة ربَّانية تقهر كل صعب .

وإذا كشفت الفلسفة عن دروب العقل التي لا تؤذن بانتهاء ، وتناقُضات الحياة والتاريخ ، هتف الدين قائلا :

ومع هذا ، فقد أودع الله فيه بصيرة ونورًا يشحذان لَديْهِ حاسَّة الاتجاه ، ويهديانه آخر الأمر إلى الحق والصواب .

هكذا يحمي الدين حقيقة الإنسان . . وهكذا تظَلُّ الحاجة إليه قائمة وباقية ما بقي الإنسان ناهضًا يحمل أعباءه في استبسال ، ويُتابع مصيره في ثَبات .

— ٢٠ —

الرجل العـــادى

في الأيام التي يتمتع فيها الضمير الإنساني بالرُّشْد والعافية تُعنى البشرية عناية بالغة بالكادحين من أبنائها . . هؤلاء الذين نسميهم « الرجال العاديِّين » . .

وحين يَغشى الظلام والمرض والتخلُّف هذا الضمير ، تزَّاوَرُ البشرية عن واجبها حيال الرجل العادي ، وعن الفقير الذي وضعته ظروفه ومقاديره في الصّفوف الخلْفية .

وحينما يفقد « الرجل العادي » نُصَرَاءه ، يجد الدينَ دائمًا في كل زمان وفي كل مكان يذود عنه ، ويُنادي إليه ، ويقرر حقوقه في صوت صادح جهير .

عندما قال المسيح لأحد الأثرياء :

« إن أردت أن تكون كاملاً ، فاذهب
وبعْ أملاكك ، وأعط الفقراء » . .

وعندما قال الرسول :

« والله لا يُؤمِن . من بات شبعان وجاره جائع » . .

عندما قال الرسولان الكريمان هذا المبدأ . وقرَّراه . كانا بهذا يبحثان عن الوسيلة المجدية التي تُؤَمِّن لُقمة « الرجل العادي » وتحمي رزق أهله وبيته .

وعندما فرض الإسلام فريضة الزكاة . . وجعلها ضريبةً يدفعها كل قادر. كان يعطي نَموذجًا للوسائل الكريمة التي تضمن للرجل العادي حق عَيْشه في كرامة .

فالزكاة بوصفها « ضريبة » تصبح حق الدولة . . وآخذها لا يكون جامعَ صَدقات . بل آخذَ حق . . وهو لا يأخذ حقًا جاءت به أريحية غنيّ . . بل حقًا فَرَضه الله له وملَّكَهُ إياه . .

* * *

والدين الذي يجعل من الضمير وِجْهته . . أعني الذي يخاطب الضمير دوما بتكاليفه وأوامره . . لا يَحصر اهتمامه بالرجل العادي في حقوقه التي يجعل منها قانونًا .لأنه مع اهتمامه بهذا المعنى وعدم إهماله إياه . يعلم أن الناس قادرون على الزيغ من

القانون مهما يكن إلزامُه . وأن أعظم ضمان وأبقاه . هو أن يحمل الضمير وحده وأبدا . مسئولية الاقتناع والطاعة والتنفيذ . .

من هنا جاءت عنايته بالناس العاديِّين شاملة عميمة .

فهو يُوصي بهم في مَرضهم . . وفقرهم وغُربتهم . .

يوصي بهم يتامى . . ومساكين . . ومَدِينين . .

وهو لا يَكل أمرهم إلى حماية القانون وحده . . بل وإلى حماية الضمير قَبلا . .

أي أنه لا يهتم فقط بما لهم من حق قانوني . . بل ويهتم بما لهم من حق اجتماعي وإنساني . وذلك بإحاطتهم بكل مظاهر الاهتمام ، والمشاركة الكريمة . والتكريم الحَفيِّ .

يصف المسيح عليه السلام عُقْبَى الأبرار الذين يُعْنَوْن بأولئك المستضعفين . فيخبر أنهم يجلسون إلى يمين الله . ويُنادَوْن :

« تَعالَوا يا مُبارَكِي أبي ، رِثُوا الملَكوتَ المُعَدَّ لكم منذ تأسيس العالَم . .

« لأني جُعتُ ، فأطعمتموني . . عطشتُ ، فسقيتموني . . كنتُ غريبًا فآويتموني . عُرْيانًا فكسوتموني ، مريضًا فزرتموني . .

مَحبوسًا فأتيتم إليّ . .

« فيجيب الأبرار حينئذ قائلين : يا رب متى رأيناك جائعًا ، فأطعمناك . . أو عطشانًا فسقيناك . . ومتى رأيناك غريبًا فآويناك . . أو عُريانًا ، فكسوناك ومتى رأيناك مريضًا ، أو محبوسًا ، فأتينا إليك . . ! ؟

« فيجيب الملك ، ويقول لهم : الحق أقول لكم . بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر ؛ في فعلتم » .

ويجئ الرسول عليه السلام ، فلا يُوصي الضمير الإنساني بهؤلاء الناس العاديِّين فحسب ، بل ويَضْرَعُ إلى ربه أن يجعله واحدًا منهم فيقول :

« اللهم أَحْيِني مسكينا . وأَمِتْني مسكينا ، واحْشرني في زُمرة المساكين » .

ويقول عليه السلام :

« من أراد أن تُستجاب دعوته وأن تكشف كربتهُ ، فلْيُفرِّج عن مُعْسِر» .

ويرسُم رسول الله صورة مُعبِّرة فيقول :

« احتجَّت الجنة والنار . . .

« فقالت النار : فِيَّ الجبارون والمتكبرون . .

« وقالت الجنة : فيَّ ضُعفاء الناس ومساكينهم . .

« فقضى الله بينهما . .

« قال للجنَّة : أنت رحمتي ، أرحم بك من أشاء . .

« وقال للنار : أنت عذابي ، أعذب بك من أشاء . . » ! !

ويهتم الرسول بإعلاء الشأن الإجتماعي للرجل العادي ، فيتحدث كثيرًا عن الميزان الذي يزن الله به عباده .

« إن الله لا ينظر إلى صُوَرِكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

ليس هناك ما يصون للرجل العاديِّ حقه في الرِّفعة والكرامة مثل هذا المبدأ العظيم .

فإذا فات الرجلَ العاديَّ بهاءُ المنظر ووجاهتُه . فإن ذلك

لا ينبغي أن يُبرر تجاهُلَه أوانتقاصه . لأن المظاهر تُرابٌ في تراب . وإنما ينظر الله إلى قلوب عباده وأعمالهم .

وإن أحد أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ليتلو علينا هذا النبأ ، فيقول :

« مَرّ رجل على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لرجل جالس عنده : ما رأيك في هذا . ؟ فأجاب : إنه من أشراف الناس ، وإنه واللهِ لَحَريٌّ إن خَطَب أن يُنكَح ، وإن شَفَعَ أن يُشفَّع . .

« فسكت رسول الله صلى الله عليه وسل ، ثم مَرَّ رجل ، فقال له الرسول : ما رأيك في هذا . . ؟ فقال : يا رسول الله . هذا رجل من فقراء المسلمين . حَرِيٌّ إن خَطَبَ ألَّا يُنكَح ، وإن شَفَعَ ألَّا يُشَفَّع ، وإن قال ألّا يُسمعَ لقوله . .

« فقال الرسول : هذا ، خيرٌ مِن مِلْءِ الأرض مِن مثل ذاك . » . .

ويجعل الرسول بذلَ العون للمحتاجين إليه شعيرة من شعائر الضمير الحرّ الرشيد .

« لَأَنْ أَمْشِيَ مع أخ في حاجة ،
أَحَبّ إليَّ مِن أَنْ أعتكفَ في مسجدي
هذا شهرًا » .

أرأيتم ، كيف يرفع الرسول الخِدْمة الاجتماعية والإنسانية إلى أعلى مراتب الأعمال الصالحات . . ؟

ولْنقرأ هذا الحديث أيضًا :

« إن لله خَلْقًا ، خلَقَهم لحوائج الناس
يَفْزَعُ الناس إليهم في حوائجهم أولئك
الآمنون من عذاب الله » . . ! !

* * *

إن الرجال العاديين . هم في كل أمة هم وَقُود حياتها المُبارَك ، فَعلى كواهلهم أكثر من سواهم تنهض المسئوليات ، وبسواعدهم وجهودهم أكثر من غيرهم تتم الأعمال وتتقدم الجماعات . . وكل إهمال لشأنهم وإهدار لحقهم لا يُصيب الأمم بالتخلف فحسب . بل ويُباعد بينها وبين الإنسانية الراشدة .

وقبل أن يكون بين الناس فلاسفة وفلسفة ، ومؤرخون وتاريخ وعلماء وعلم ، كان هناك المرسلون يجمعون الكادحين والناس البُسطاء العاديِّين تحت راية الله ليرتفعوا بهم إلى مكانهم الحق ، ويبلُغوا بهم قَدَرَهم المسطور . . ! !

ومن قُرابة ألْفي عام . . كان المسيح يعطي ظهره في استغناء ، للذين يستعلون على الناس بثرائهم ، أو بجاههم ، أو بمناصبهم . . وكان يبحث عن البُسطاء فيختار منهم حَوَارِيِّيه ، وعن الجموع الكادحة فيمنحها قلبه وحبَّه وبركته .

ومنذ قرابة ألف وأربعمائة عام . كان محمد رسول الله يتلو على الناس قول ربه ووعدَه :

« ونُريد أَن نَمُنَّ على الذين استُضعفُوا في الأرض ، ونجعلَهم أئمةً ، ونجعلهم الوارثين » . .

وكان يتلو عليهم أيضًا قوله تعالى :

« تِلْكَ الدَّارُ الآخرة نجعلُها للذين لا يُريدون عُلُوًّا في الأرض ولا فسادًا » .

وكان هو نفسه يضع هذا المبدأ موضع التنفيذ الصادق

الأمين فيتخذ من المستضعفين أصدقاءه وجُلَسَاءه، وجنود دعوته ، وحملَة رَايَتِهِ .

ويقول لأصحابه :

« أبغوني ضعفاءكم – أي هاتوهُم إليَّ –
فإنما تُنصَرون وتُرزقون بضعفائكم » . .

وحين دفعه حُسْن النية ، وطهارة القَصد إلى الإقبال على أحد السَّراة والصَّفْوة يدعوه إلى كلمة الله ، مُرْجِئًا لهذا السبب الاهتمام بأمر أحد فقراء المسلمين جاء يسأله ويَستهديه . . نزل الوحي أسرع من الضوء حاملاً إليه عتابَ ربه في أسلوب مُحذِّر.

« عَبَسَ وتولَّى . أن جاءه الأعمى ،
وما يُدْرِيكَ ، لَعلَّه يَزَّكَّى . . أو يَذَّكَّرُ
فتنفَعَه الذكرى ، أمَّا مَن استَغْنى ،
فأنتَ له تَصَدَّى . . ؟ ؟ ومَا عَلَيكَ
ألَّا يزَّكَّى وأمَّا مَن جاءكَ يسعى ،
وهو يخشَى ، فأنتَ عنهُ تلَهَّى . . ؟
كَلَّا » .

* * *

هذه صورة مشرقة يجد فيها البُسطاء العاديُّون والكادِحون مكانهم الحي عند الله . . ومنزلَهم الرفيع الذي بوَّأهُم الدين إياه .

ألَم أقُل لكم من قبل : إن الدين أقدرُ من سواه على أن يَحمي حقيقة الإنسان . . ؟ ؟

في العلاقات الاجتماعية

البشرية عند الدين . ليست مجرد حيوانات ناطقة ، كما يُعَرِّفُ المناطقة الإنسان . بل هي ، كائنات حية عاقلة مُهذبة .

والإنسان لأخيه الإنسان كالْبنيان .يشدُّ بعضه بعضا .

ولقد رأينا من قبل وجهة نظر الدين في مكان الفرد من الجماعة .

وهنا نبصر بعض توجيهاته الرشيدة السديدة في مسئولية الفرد تجاه العلاقات الاجتماعية . . هذه المسئولية التي تجعل من الناس بشَرًا مهذَّبين .

واهتمام الدين بالعلاقات الاجتماعية ، لا يهدف إلى خَلْق الإنسان المهذَّب فحسب ، بل ويهدف إلى زيادة أعداد المهذبين ، فذلك السبيل ، خيرُ السُّبُل لقطع الطريق على الشرِّ وعلى قُوَى التخريب والنكْسَة والفساد .

لقد عبَّر المسيح تعبيره الرائع الجزيل عن واجب الفرد تجاه علاقاته بالناس حين قال :

« أحِبُّوا أعداءكم » . .

« أحسنوا إلى مُبغضيكم » . .

« بَارِكُوا لَاعِنِيكُمْ » . . .

إن البَشَر في مُعاناتهم الحياة يتفَصَّدُون أذًى وحماقة ، كما يَنْضَحون خيرًا وبشْرًا . .

وما لم يكن هناك قدر مشترك ومتبادل من التسامُح والتفاهُم والوُدّ ؛ فإن الحياة تُصبح بالنسبة لهم جميعًا قاسية وجرداء . .

وليست المشكلة أن يحمل الإنسان نفسه على حب أحبابه وأصدقائه فهو لا شك مُحبُّهم من غير أن يبذل في هذا الحب جهدًا .

إنما المشكلة أن يحمل الإنسان نفسه على محبة الآخرين الذين قد يبغضونه . . وقد يضايقونه . . فالأمر كما يقول امسيح :

« إن أحببتُم الذين يحبونكم ، فأيُّ فضل لكم . . . ؟

« فإن الخُطاة أيضًا يحبون الذين يحبونهم.

« وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم
فأي فضل لكم ؟ فإن الخُطاة أيضًا
يفعلون هكذا » . .

إن العلاقات الاجتماعية والإنسانية بين بني البشَر ، لَتَجد في تعاليم السيد المسيح هذه ، ذِروة اكْتمالها .

وإن المسيح ليُلَخِّص القضية كلها والمسئولية كلها في هذا المبدأ .

«كما تُريدون أن يفعل الناسُ بكم .
افعلوا أنتم أيضًا بهم هكذا » .

* * *

وحين يصبح التناصح واجبًا ، ونقد الخطأ مطلوبًا ، فإن الدين في هذا المقام يجعل الرفق ، والنُّبل ، والصدق في ممارسة النقد فريضة محتومة .

فالإنسان الذي تتحول فضيلة التناصح على شفتيه شماتة . . ويجعل من نقده تشهيرًا . إنسان يرثِي له الدين ويزدريه .

أولا : لأنه هو نفسه لا يخلو من أخطاء . . .

وثانيًا : لأنه لوَّث فضيلة النقد حينما أحالها إلى شماتة وتشهير.

وهنا نلتقي بالسيد المسيح يقول :

« من كان منكم بلا خطيئة ، فلْيرم بحجر » . .

ونرى رسول الله يرفض أن يواجه شخصًا مُعيَّنًا بخطئه أمام الآخرين ، حتى لا يحرج شعوره . بل ينتهز عليه السلام فرصة اجتماع عام ثم يقول :

« ما بال أقوام يفعلون كذا . وكذا » . .

تاركًا صاحب الخطأ يعرف نفسه ، ويدرك خطأه في صمت وسَتر ، وكان يعلم أصحابه فيقول :

« من رأى عَوْرَةً فستَرها ، كان كمن أحيا مَوْءُودَة » .

وبهذه القاعدة الذهبية في العلاقات العامة بين الناس لا يهدف الدين إلى حماية المجتمع فحسب من الثرثرة المسِفَّة ، والتشهير الأثيم ، بل ويخلق للفضائل ، الظروف الملائمة لنموها وإشاعتها .

ذلك أنه لا شيء كالرفق يُعالج أخطاء النفس ويُقوِّي ضعفها .

* * *

كما أن ذلك خير سبيل لتعويد الناس على أن يَغْفِرَ بعضهم لبعض ويتسامح بعضهم تجاه البعض ، فلا يُقابِل الإنسان كلَّ أذى يُوَجَّه إليه بأذًى جديد ، يزيد من رَصيد الشرّ والسُّوء .

وإن الدين لكبير الاهتمام بهذا الخلُق . . خُلُق التسامُح والمغفرة . .

وإنه لَيرْثي للإنسان الذي يَدينُ الناس بكل ما يخطئون ، ويقتصُّ منهم عن كل إساءة يُوجهونها إليه .

ذلك لأن مثل هذا يَدينُ نفسه وهو لا يدري ، لأنه غير معصوم من الخطأ . . وسوف يَقْتِرفَ بدَوْره في حق الآخرين سُوءًا ، فما لم يكن متسامحًا وصفوحًا ، فإنه لن يكون أهلا لِصَفْحِ الآخَرين وتسامُحهم تِجاهَه . .

وإن المسيح ليضرب لهذه القضية مثلا باهرًا . فيقول :

« . . لذلك يُشبه مَلكُوتُ السماوات
إنسانًا ملكا ، أراد أن يُحاسب عبيده . .
« فلما ابتدأ في المُحاسبة ، قُدِّم إليه
واحد مديون بعشرة آلاف . . .
« وإذ لم يكُن له ما يُوَفّي ، أمر سَيِّدُه

أن يُباع هو وامرأتُه وأولاده وكل ماله ، ويُوفَّى الدَّيْن ، فخَرَّ العبد وسجَد له قائلا : يا سيِّد تمهَّلْ عليَّ فأوَفِّيك الجميع . .

« فتحنَّن سيد ذلك العبد ، وأطلَقه وترك له الدين . .

« ولما خرج ذلك العبد وجد واحدًا من العبيد رُفقائه كان مديونًا بمائة دينار ، فأمْسَكَهُ وأخذ يُعنقُه قائلا : أَوْفِني ما لي عليك . . فَخرَّ العبد رفيقُه على قدميه ، وطَلب إليه قائلا : تمهَّل عليَّ فأوفيك الجميع . .
فلم يُرِد ، بل مضى وألْقاه في سجن حتى يوفي الدين » . .

« فلما رأى العبيد رُفقاؤُه ما كان . حزنوا جدًا وأتَوْا ، وقَصُّوا على سيدهم كل ما جرى . .

« فدعاه حينئذ سيده وقال له : أيها

العبد الشرِّير . . كل ذلك الدين تركتُه
لك ؛ لأنك طلبت إليَّ . . أفما كان
ينبغي أنك أنت ترحم العبدَ رفيقَك ،
كما رحمتُك أنا . . ؟ ؟

« وغضب سيده وسلَّمه إلى المعذِّبين
حتى يوفي كل ما كان عليه . .
« فهكذا أبي السَّماويّ يفعل بكم إن
لم تتركوا من قلوبَكم كل واحد لأخيه
زَلَّاتِه » .

إن المسيح عليه السلام يضرب هذا المثل الذي يستمدُّ شكله من واقع الحياة في أيامه .

فقد كان الناس أيامئذ يُباعون في ديونهم التي يعجزون عن سدادها .

وهو بهذا المثَل يكشف عن حاجة الإنسان . . كل إنسان . . إلى الرحمة والمغفرة . . ومن ثَمَّ فواجبه أن يتسامَح مع الآخرين وأن يغفر ما استطاع للذين يُسيئون إليه .

ويَدحَضُ الرسول عليه السلام إغراءَ الغضب وشرَّه ، باعتباره – أي الغضب – القوة العمياء التي تصدُّ الإنسان عن كل صفح

وأناة ، تدفعه إلى الأذَى والانتقام ، فيقول :

« ليس الشّديد بالصُّرَعَة – أي الذي
يصرع غيره وينتصر عليه في عِراك – . .
إنما الشديد الذي يَملِكُ نفسه عند الغضب »

كما يقول عليه السلام لمن جاءه يسأل أن يُوصيه بُجماع الخير :

« لا تَغضَبْ » .

ويرسم صورة ذكيَّة لصُنوف الناس من حيث استجابتهم لرذيلة الغضب فيقول عليه السلام :

« . . ألا وإن منهم البطيءَ الغضب ،
سريعَ الفَيْء .
– أي سريع الرجوع عن غضبه –
« والسَّريعَ الغضَب ، سريعَ الفيء
والبطيءَ الغضب ، بطيءَ الْفَيْء . .
فَتِلْك بِتِلك .
ألا وإن منهم بطيءَ الفيء سريعَ
الغضب .
« ألَا وخيرُهم بَطيءُ الغضب ، سريعُ

الفَيء ، وشَرُّهم سريعُ الغضب ، بطيءُ
الفيء » .

* * *

ويواصل الدين سعيه وعمله في إقرار العلاقات الإجتماعية على خير الأنماط وأزكاها ، مُزيحًا من طريق سلامتها كل عوامل التثبيط والخذلان .

فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام :

« إياكم والظن ، فإن الظنَّ أكذبُ
الحديث ، ولا تَجسَّسوا . . ولا تَحسَّسوا .
ولا تَنافَسُوا . . ولا تَحاسَدوا . . ولا
تَباغَضوا . . ولا تَدَابَرُوا . . وكونوا عِباد
الله إخوانًا » .

إن كل هذه الآفات التي ينهى عنها الإسلام . ويضع هَجْرَها وتركها بين واجبات المسلم الكبرى ، من أكثر ما يُمزِّق سكينة الحياة ويقطع حبل الوُدِّ بين ذويها .

والعلاقات الاجتماعية تفشل فشلا أكيدًا في كل جماعة تروح بينها مثل هذه الآفات .

وللعلاقات الاجتماعية عند الرسول نَمَطٌ شامل. حتى لَكأنَّه قانون ينتظم كل حاجاتها.

فللمجالس آدابه.. وللصداقة آدابها.. وللنُّصْح آدابه.. وللسير في الطريق آدابه.. وللحديث آدابه.. وللزيارة آدابها.. بل وللمصافحة طريقتها وآدابها.

ويُقدِّر الإسلام أبلغ تقدير كل همسة. وكل خَلْجة يمكن أن تُنمِّيَ مشاعر الود بين الناس، حتى الْبَسْمَة العابرة في وجه من تَلْقاه..!!

ويقول عليه السلام:

«يا أبا ذَرّ، لا تَحقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولَو أن تَلْقَى أخاك بوجه طَلْق».

ولكي نرى طَرَفًا من الآداب التي وضعها الإسلام لكل حالات النشاط اليومي بين الناس مما يُزكِّي سلامهم وسلام علاقاتهم الإجتماعية، علينا أن نطالِع هذه التعاليم لرسول الله عليه السلام:

«إياكم والجلوسَ في الطُّرُقات.

«قالوا: يا رسول الله. ما لنا بُدٌّ مِن

مَجالسنا ، نتحدث فيها .

« فقال : إذا أَبَيتُم إلا المجلس ، فأعْطوا الطريق حقه

« قالوا : وما حَقُّه يا رسول الله . . ؟

« قال : غَضُّ البصَر ، وكَفُّ الأذَى ، ورَدُّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » .

ويقول عليه السلام :

« لا يُقيمنَّ أحدكُم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن تَوسَّعوا ، وتَفسَّحُوا يَفْسَحِ الله لكم » .

ويقول :

« إذا كانوا ثلا ثة ، فلا يَتَناجَى اثنان دُون الثالث ، فإن ذلك يحزنه » .

ويقول :

« إذا أَحَبَّ أحدكم أخاه فَلْيخبره أنه يحبه » .

« إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسأله عن
اسمه واسم أبيه ، ومِمَّنْ هو ؛ فإنه
أَوْصَلُ للمودَّة » .

وإذا غلبك البغض لأحد فليكن بُغضا رفيقا :

« أَبْغِض بَغيضك هَوْنَامًّا ، عسَى أن
يكون حبيبك يوما مَّا » .

والعلاقات الاجتماعية يجب أن تكون إيجابية بنَّاءة ، وهذ
يتم بالتعاوُن الوثيق وبذل العون .

« مَن كان في حاجة أخيه ، كان الله
في حاجته » .

« واللهُ في عَون العبد ، ما دام العبد
في عون أخيه » .

« وإنَّ أحدكم مِرآةُ أخيه ، فإن رأى
به أَذًى ، فَلْيُمِطْهُ عنه » .

« مَن ذَبَّ عن عِرض أخيه ، رَدَّ
الله النارَ عن وجهه يوم القيامة » .

وعلى الناس أن يحتفظوا لعلاقاتهم الإجتماعية . بحرارة

الوُد ، باستثمار كل مُناسبة تُزكّي حماس المودَّة .

« تَصافحوا ، يذهب الغِلّ » .

« وتهادَوْا ، تحابوا وتذهب الشحناء »

وإهمال هذه العلاقات إهمالا يبلغ بها حدَّ القطيعة ، وِزرٌ عند الدين كبير وخطير .

يقول عليه السلام :

« مَن هجر أخاه سَنَةً ، فهو كَسَفْكِ دمه » .

* * *

تِلكَ نظرة سريعة نُلْقيها على الروح النبيل والفهم السّديد اللذين يُعالج الدين بهما قضية العلاقات الإجتماعية بين البشَر.

هذه العلاقات التي تتَّسع مع اتساع فُرصِها الطبيعية ، مجالات الحب البشري والأخاء الانساني ، وتبلغ الجماعة – أيُّ جماعة – بسببها غايتها المرجُوَّة من التهذيب والسُّمو.

احترام الحياة

تبلغ الحياة في أحضان الدين غاية أَمْنِها ومُنتهى عافيتها .

وفي تعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام تنعم الحياة بقداسَةٍ وجلال .

وإذا كانت الحياة في شتَّى مُفرداتها وَوحْدَاتها ، تبدأ بالميلاد ، فإن لحظات الميلاد هذه يراها الرسول أعيادًا . . ! !

ولو رأيناه عليه السلام . وهو يستقبل النَّبْتَةَ الطالعة ، تَلِدُها الأرض في حنان . لرأينا عظمة الإنسان في أبْهى مشاهدها . .

إن منظر النبتة تتشقَّق عنها تُربتُها ، أو الزهرة تتفتح عنها أكمامها ، ليملأ نفسه بالغبطة ، ويهزُّ كيانه بالفَرح . . !

وإنه عليه السلام . ، لَيقترب منها ، ويَلْثُمها بفمٍ مُحِب ويداعبها بأناملَ حانية . . فإذا كانت طلائع ثَمرٍ مَوْسِمِيٍّ احتضنتها نظراتُه العابرة ، وقال متفائلا بها ، ومتحدثًا معها :

« عامُ خيرٍ وبركة إن شاء الله » . . ! !

وهو عليه السلام يهتز غبطة وفرحًا وشُكرًا ، لكل حادثِ ميلاد . .

فكل ميلادٍ جديد ، هو في تقديره حادث عظيم يُثير أشواقه ، ويبتعث اهتمامه . . حتى ميلاد الهلال عندما يبزغ في أولى ليالي ظهوره يستقبله الرسول في حفاوة وحنان ، ويناجيه قائلا :

« هلالُ خير وبركة إن شاء الله » .

ثم يبتهل إلى ربه العظيم قائلا :

« اللهم أَهِلَّهُ علينا بالْيُمْن والإيمان والسلامة والإسلام » . .

ثم يعود فيناجيه الرسول قائلا :

« ربي وربُّك الله » . . .

* * *

وإذا كانت الحياة – أيَّةُ حياة – إنما تبدأ بالميلاد .

فإنها تستبقي وجودها بالنُّموِّ والاستمرار . ثم بحفظ مقاديرها وتأمين مصايرها . .

وفي هذا المجال يقف الدين إلى جوار الحياة يشدُّ أَزْرها ويقدس حَقَّها . .

• فالنبات الذي وُلِد ، وداعبت براعِمَه نسماتُ الوجود ، صار له حق مُقدس في النمو. وفي الاستمرار حتى يبلغ أجَلَه .

وتعهُّده بالسَّقي والرِّعاية والخدمة ، ليس عملا من أعمال الدنيا فحسب . . بل هو قبل ذلك عبادة يَعِدُ الدين عليها بمثوبة الله وجزيل عطائه . . ! !

• والحيوان ، له بحق الميلاد حقٌّ الحياة . .

ولحياته حُرمات يصونها الدين ويحفظها .

أجل . .

إن حياة الحيوان التي تبدو لبعض الناس ضياعًا وهدَرًا يحترمها الدين احترامًا أكيدًا ، ويعلن حقوقها إعلانًا مجيدًا .

ها هو ذا رسول الله يقول :

« في كل كَبدٍ رطْبَةٍ أجْر» . .

ويضع أمام الضمير البشري مثلين باهرين لامرأتين اختلفت طريقتهما في احترام حياة الحيوان :

أما الأولى : فكانت بَغِيًّا لا تظن أن لها في رحمة الله نصيبًا

كانت تسير في يوم صائف قائظ ، فرأت كلبًا يلهث من الظمأ ، وهو يطوف ببئر يريد أن يبلغ ماءه وما هو ببالِغه . . فرقّ له قلبها . وخلَعت خُفَّها وملأته من ماء البئر ، وقدمته للكلب حتى شرِب ورَوِي . فشكر الله لها وغفرلها . .

وأما الثانية : فامرأة حبست هِرة . . فلا هي أطعمتها ، ولا هي تركتها تأكل من خَشاش الأرض . فكانت النار جَزاءها وعُقْباها . .

وحتى حين يُذبح الحيوان لا يَفقد حقه في الرعاية والرحمة . .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« إن الله كتب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتُم ، فأحْسنوا القِتْلَة ، وإذا ذبحتم ، فأحْسنوا الذِّبحة ، ولْيُحِــدَّ أحدُكم شَفْرَته . . . ولْيُرِحْ ذبيحتَه » . .

وقد يجد أحدنا من حقه إذا قرصَه برغُوث مثلا . . أن يقتله كيف شاء . . ؟ !

كلا . . فحتَّى حياة البرغوث على تفاهته وضآلته وأذاه . يتدخل الدين لحمايتها من الألم والعذاب . . ! !

* * *

تُرى إلى أيٍّ مدًى يحترم الدين إذن حياة الإنسان . . ؟ ؟

إلى أيّ مَدًى يحفظ لها حقها في الأمْن ، ويَدرَأُ عنها الكيْد والألم ، والاغتيال . .

ألا إن الدين ليذهب في هذا الحفاظ إلى أبعد مَدًى .

ومن رأى المسيح وهو يُحاور رئيس المجمع اليهودي بسبب علاجه مريضًا في يومِ سَبْت ، لرأى « ابن الإنسان » و « روح الله » في موقف تناهى سُمُوُّه وجلاله .

ففي يوم سَبْت ، جاءته امرأة تعاني آلام المرض وعذابه .

واليهود يومئذ ، يُحرِّمون مزاولة أي عمل يوم السبت حتى لو يكون إنقاذ حياة إنسانية من آلامها . . ! !

وعالج « المسيح » المريضة فشفاها الله ببركاته من فَورِها .

وجمع رئيس المجمع الناس ليحاكم « المسيح » أمامهم وسأله :

– كيف تُبرئ في يوم السبت . . ؟ ؟

وفي مثل هذا حدِّ السيف مَضاءً ، وألَقًا ، جاءه رد المسيح :

– « يا مُرائي . .

« أفَئن سقَط حِمارُك في بئرٍ يوم السبت ،

أنقذته وأبرأته . .

« وحين يمرض إنسان ، تنتظره في
عِلَّته إلى يوم الأحد » . . ؟ ؟ ! ! !

ثم أطلق صيحته المباركة الجليلة :

« إنما خُلِق السبت من أَجْل الإنسان » .

« ولم يُجعَلِ الإنسان من أجل
السَّبْت » . . ! !

أجل : إن كل شيءٍ مُسَخَّرٌ لحماية الإنسانية .

كل شيءٍ . . الشرائع ، والقوانين ، والأخلاق ، والتقاليد ، والنظم والحكومات ، والمجتمعات ، والمبادئ والفلسفات . .

كل مبدأ يحترم حياة الإنسان ، ويصونها ، ويقدسها ، فهو مبدأ حق وعدل يستحق بدوره الإجلال والاحترام .

وموقف آخر للمسيح عليه السلام . عندما هاجمه الغوغاء والحرس الروماني ليأخذوه[1] .

سألهم :

« من تطلبون » . . ؟ ؟

---

(١) راجع كتاب – معًا على الطريق . محمد والمسيح – للمؤلف .

قالوا :

« زيد الناصري » .

قال :

« أنا هو . . ولستُ أسألكم إلا شيئًا
واحدًا – أَن تدعُوا هؤلاء يذهبون لبيوتهم
حتى أستطيع أن أقول لأبي حين ألْقاه :
إن الذين أعطيتني لم أُهْلِكْ منهم
أحدا » . . ! ! !

إن حياة تلامذته ، لا حياته هو . هي موضع مسئوليته ، حتى في هذا الموقف الذي يدَعُ الحليم حيران . . ! !

إن مسئوليته عن الذين اتبعوه . . والذين تولّى قيادتهم إلى الله تنسيه في هذا الموقف الرهيب نفسه ، وسلامته . ومصيره .

وليس يعنيه إلا حياة هؤلاء الذين ائتمنته عليهم المقادير . .

وكل ما يرجوه ويبتغيه أن يقول لربه حين يلقاه :

« إن الذين أعطيتَني ، لم أُهْلِكْ منهم
أحدا » . . ! !

* * *

وتبلغ خدمة الحياة عند محمد رسول الله غايةً تفوق كل تقدير.

فالحياة الإنسانية مُقدسة لَدَيْه. مقدسة في دينه.. مقدسة في تفكيره.. مقدسة في شعوره.. مقدسة في سلوكه..

وهو لم يُرق دمًا قط إلا في حرب مشروعة، يدافع فيها عن دينه وحقه، ويواجه فيها المشركين وجهًا لوجه.

أجَل. إن الإسلام يعرف القتال.. الا يعرف القتل. والقتال عنده ليس فتنة، ولا مغامرة، بل هو جهاد مشروع يعلنه الإمام أو الحاكم ضد مشركين، أو كافرين، أو خَوارِج تخرج جيوشهم لمحاربة الإسلام والإعتداء على الناس.

يقول القرآن الكريم:

« قاتلوا الذين يقاتلونكم، ولا تعتدوا »

ويقول:

« قاتلوا المشركين كافَّة، كما يُقاتلونكم كافّة ».

ويقول:

« فإن اعْتَزَلوكُم. فلم يقاتلوكم وألْقَوْا

إليكم السَّلَمَ ، فما جعل الله لكم عليهم
سبيلا » .

أمَّا دون هذا ، فالإسلام لا يصون الحياة الإنسانية من القتل فحسب ، بل ومن أهون مظاهر الترويع والإخافة .

يقول عليه الصلاة والسلام :

« لا يشيرَنَّ أحدُكُم إلى أخيه بالسلاح
فإنه لا يدري لعلَّ الشيطان يَنزِعُ في
يده » . . .

ويقول :

« من اشار إلى أخيه بحديدة ؛ فإن
الملائكة تلعنُه حتى ينتهي » . .

ويصونها من التعذيب والألم ، فيقول :

« إن الله يعذب الذين يعذبون الناس
في الدنيا » . .

ويصونها من القتل والغيلة ، فيقول :

« لَزوالُ الدنيا جميعًا ، أهونُ على الله
من دمٍ سُفِكَ بغير حق » . .

ويقول :

« يجيءُ المقتول آخذًا قاتِلَه وأوداجُه تَشْخَبُ دما . يقول : يا رب ، سَلْ هذا فيم قَتَلَني » . . ! !

ويقول :

« لا يَقِفَنَّ أحدكُم موقفًا يُقْتَلُ فيه رجل ظُلمًا ؛ فأن اللعنة تنزل على كل من حَضره حين لم يدفعوا عنه . . .

« ولا يَقِفَنَّ أحدكم موقفًا يُضرب فيه رجل ظلمًا ؛ فإن اللعنة تنزل على كل مَن حضره حين لم يدفعوا عنه » .

* * *

وبعد . . .

فإن لحياة الإنسان حرمتها عند خالقها وبارئها .

وإن لدم الإنسان حرمتُه عند واهبه ومُجريه . .

وإن كل فرد إنساني ، بناء بناه الله وسوَّاه . .

فمن ذا الذي يملك القدرة والجرأة على أن يهدم بناء الله . . ؟ !

* * *

ويبلغ احترام الدين حياةَ الإنسان غايته الجليلة حين لا يجعل هذه الحياة ملكا لصاحبها . . بل هي مِلْكٌ لله الذي خلقها . وهي مِلْكٌ للحياة الإنسانية التي أصبحت تُشكِّل جزءًا منها .

ومن ثَمَّ لا يملك الإنسان – أيُّ إنسان – أن يتخلص من حياته بالانتحار. . بل ولا يملك حق إهمالها وتعريضها للخطر والهلاك .

يقول الرسول عليه السلام :

« مَن تَحسَّى سُمًّا فقتَل نفسه ، فَسُمُّهُ في يده يتحسَّاه في نار جهنم خالدا مُخلَّدًا فيها أبدا » . .

وكان عليه السلام إذا رأى أحد أصحابه يجهد نفسه في العبادة ينهاه ، ويدعوه للرفق بنفسه ؛ وبحياته قائلا :

« إن لِبَدنِك عليك حقا » .

* * *

هكذا يحترم الدين الحياة ويقدسها .

وهكذا يصون حقوقها في الأمْن ، وفي الإستمرار. .

ذلك أن الله العظيم لم يجعل الحياة عبَثًا ، ولم يخلق عباده سُدًى .

بل إن لكل إنسان حَيٍّ دوره الذي تنمو به الحياة ، ولكل إنسان حَيٍّ ، مصيره الذي لا يملك الفصل فيه سوى الله .

* * *

الدينُ للشعب

في كتاب "الدين للشعب" تنطلق كلمة "الدين" في هديها المبارك، لتزيح من أمام الإنسان ومستقبله كل قوى الردّة، والبغي والظلام.. وترسم أمامه طريق الوثوق والطمأنينة والخير، فيسير هاديا مهديا ليعيش أطيب حياة وينقلب إلى خير مصير.

الناشر

دار الإسلام
للطبع والنشر والتوزيع
القاهرة